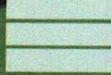


علي مولا



# طبقات المجتمع

أندريه چوسان

ترجمة

الدكتور السيد محمد بدوي







# طبقات المجتمع

تأليف: أندريه جوسان

ترجمة: د. السيد محمد بدوى

مراجعة: د. أحمد عزت راجح

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



## الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة  
سعد عبد الرحمن  
أمين عام النشر  
محمد أبو المجد  
الإشراف العام  
صبحى موسى  
الإشراف الفنى  
د. خالد سرور

مدير التحرير  
سعيد شحاتة

- حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
- يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا ب إذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

- طبقات المجتمع
- تأليف: أندريه جوسان
- تصميم الغلاف:
- د. خالد سرور
- الطبعة الثانية ٢٠١١
- الهيئة العامة لقصور الثقافة
- رقم الإيداع: ٢٠١١ / ١٦١٧٤
- الترقيم الدولى: 4-752-704-977-978

التجهيزات والطباعة :  
شركة الأمل للطباعة والنشر  
ت : 23904096

طبقات المجتمع

---



## فهرس الكتاب

تقديم : ويشمل التعريف بالمؤلف ومنهجه العلمى  
وعرض مؤلفاته وتلخيص سريع لفصول

الكتاب . . . . . ١٢ - ١٥

أهم مؤلفات المؤلف . . . . . ١٣ - ١٤

مقدمة : ما هى الطبقة الاجتماعية ؟ . . . . . ١٥ - ٢٥

عناصرها : الثروة ١٦ - المهنة ١٨ - نوع الحياة ٢٠  
- التربية والثقافة ٢٣ - التأثير المتبادل بين جميع هذه  
العناصر ٢٥ - صعوبة تحديد معنى الطبقة ٢٧ - فم  
تختلف الطبقة عن الطائفة والفئة الاجتماعية . ٣٠

الفصل الأول : عوامل الصيد والنقوذ . . . . . ٣٦ - ٦٠

الخدمات التى تؤديها المهنة ٣٨ - صيت المهنة عن طريق  
الثروة التى تجلبها ٣٢ - صيت المهنة عن طريق الإعجاب  
بها ٤٣ - قوة السلاح ٤٧ - قوة المال ٤٨ -  
قوة المدد ٥١ - قوة الفسكر ٥٣ - توقف النقوذ على  
حسن استعمال القوة ٥٥

الفصل الثانى : تكوين الطبقات . . . . . ٦١ - ٨٧

علاقات التبعية ٦٢ - تبعية شعب إلى شعب ٦٧ -  
تأنج تقسيم العمل ٧٢ - تأثير النظم العسكرية ٧٥ -

تأثير النظم المدنية ٧٩ — تأثير النظم الدينية ٨١ — تأثير  
الثروة والثقافة ٨٢ .

### الفصل الثالث : تطور الطبقات . . . . . ٨٨ — ١٣٥

تداخل الطبقات أو اندماجها ٩٥ — رغبة الطبقة الدنيا في  
الارتقاء ٩٧ — التجدد الضروري ١٠٨ — أهمية  
الخدمات التي تؤديها طبقة ١١٥ — مثال طبقة تتدهور :  
النبل ١٢٥ — مثال الطبقة ترتقى : البورجوازية ١٢٨ .

### الفصل الرابع : الطبقات والحياة السياسية . . . . . ١٣٦ — ١٦٧

اعتراف القانون بالتمييز بين الطبقات ١٣٧ — النزعات  
السياسية للطبقات ١٤٧ — التصارع والنزاع بين الطبقات  
١٥٢ .

### الفصل الخامس : انحيازات الطبقات واتجاهاتها الخلقية ١٦٨ — ١٨٩

الانحيازات ١٧٥ — المظهر وقواعد اللياقة ١٧٦ —  
الصفات والفضائل ١٨١ — التأثير الثقافي المتبادل بين  
الطبقات ١٨٦ .

### خاتمة . . . . . ١٩٠ — ٢٠٤



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

## تقديم

مؤلف هذا الكتاب أحد المفكرين الفرنسيين المعاصرين الذين ضربوا بسهم وافر في ميادين الفلسفة وعلم الاجتماع . وقد بدأ حياته العلمية في مطلع هذا القرن بعد أن حصل على « الأجر جاسيون » ، في الفلسفة ، وهي درجة لا يحصل عليها إلا عدد قليل من مئات الشبان الذين يتقدمون كل عام لهذه المسابقة ، بعد أن يمروا بسلسلة من الاختبارات الشاقة أمام هيئة تحكيم مكونة من فطاحل العلماء وأساتذة السوربون . ثم حصل بعد ذلك على درجة الدكتوراه في الآداب . وظهر أول مؤلفاته الفلسفية في عام ١٩٠٩ بعنوان « الأساس السيكولوجي للأخلاق »<sup>(١)</sup> . ثم ظهرت له في السنوات التالية مؤلفات أخرى

---

(١) انظر قائمة أشهر المؤلفات التي كتبها المؤلف في ذيل هذا التقديم ، مرتبة

حسب تاريخ ظهورها .

عن أثر الرومانتيكية في الدين والسياسة ، وعن فلسفة الطبيعة ، وعن الانفعالات الإنسانية ، وعن العواطف والذكاء . كما كتب في تاريخ الفلسفة « دراسة نقدية لفلسفة بركلي » ، وعرّج بعد ذلك على علم الجمال فألف فيه كتاباً عن « النظرية الجمالية عند فيسكتور هوغو » ، موضحاً مواطن الروعة في شعره الغنائى وفي ملاحمه الكبرى .

أما فيما يتصل بالدراسات الاجتماعية فإن أشهر ما كتبه المؤلف كتابه عن علم الاجتماع الاقصادى ، ثم هذا الكتاب الذى تقدمه اليوم بين يدي القارىء العربى .

ومن اليسير أن نلاحظ أن المؤلف قد سار فى الطريق التقليدى الذى سلكه وأضعوا أسس علم الاجتماع فى فرنسا حين دخلوا ميدان علم الاجتماع من باب الفلسفة . فعل ذلك « أوجست كونت » ، ثم « دوركيم » ، من بعده . ولكن مؤلفنا يعلن فى صراحة أنه لا ينتمى لمدرسة أوجست كونت ودوركيم ، بل يتبع منهج المدرسة النفسية ( السيكولوجية ) التى وضع أسسها فى فرنسا أيضاً العلامة « جبريل تارد » ، وانتمى إليها بعد ذلك بول لاكومب La combe ، وجاستون ريشارد Gaston Richard وفرانسوا منتريه Mentre ، ودوبرا Duprat .

وهو يعيب على مدرسة دوركيم رجوعها إلى مصدر واحد

( ٧ )

لتفسير الحضارة الإنسانية ، وهذا المصدر هو العشيرة البدائية .  
ويقول إنها اتخذت من عقائد بعض القبائل البدائية ، كالعقيدة  
الطوطمية Le totémisme أساساً لتفسير جميع العقائد  
والديانات حتى ما بلغ منها أعلى مراتب السمو والروحانية . ثم  
يستنتج من هذه الأمثلة التي يستدل بها على فساد المذهب  
« السسيولوجى » نتيجة يبدو فيها الغلو والتسرع بل والتجامل ،  
وهى أن المذهب قد أصبح اليوم عقياً بالياً لا يصلح أساساً  
لأى تفسير للظواهر الاجتماعية . وقد تكون هذه وجهة نظر  
أنصار المدرسة النفسية ، ولكن هذه المدرسة أيضاً لها عيوبها  
المنهجية وأهمها التبسيط المتناهى وتجزئة الظواهر والنظم تجزئة  
تضيع حقيقتها المركبة وتذهب بمعالها وصفاتها الذاتية .

ومهما يكن من شئ . فليست النظرة الاجتماعية هى التى  
أصبحت اليوم بالية ، بل إن الذى أصبح بالياً وعتيقاً هو ذلك الخلاف  
والنزاع بين أنصار المذهب الاجتماعى وأنصار المذهب النفسى .  
وقد احتل هذا الخلاف مكاناً بارزاً من تفكير علماء الاجتماع  
فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن . ولكن الجدل  
حول هذا الموضوع قد قفل بابه اليوم ، وأصبح علماء الاجتماع  
فى العصر الحديث من أمثال كولى Cooley فى أمريكا ، ودرادكليف

براون، في انجلترا<sup>(١)</sup>، وجورفيتش Gurvitch في فرنسا لا ينظرون إلى المسائل الاجتماعية من وجهة نظر واحدة، بل ينظرون إلى التأثير المتبادل والتفاعل بين الفرد والمجتمع. فإذا كانت العادات والتقاليد الراضخة تسود — في بعض الأحيان — وتسيطر على العقول، فقد يحدث — في أحيان أخرى — أن يسود أثر الابتكار الشخصي والقوة الفردية الدافعة.

وإذا بحثنا في الأسباب التي دفعت المؤلف إلى خوض غمار البحث الاجتماعي وجدنا أنه يشير إلى الثورات والانقلابات الاجتماعية التي نجمت عن الحروب، وإلى الآفات الاجتماعية التي نجمت عن التصنيع، كازدحام المراكز الصناعية، وانتشار البطالة، ونفسي الجريمة، والتدهور الخلقى بين أوساط العمال. كل هذه العوامل أشعرتنا — كما يقول — بالحاجة الماسة للبحوث الاجتماعية كي نستعين بها على حل مشاكل الساعة من أزمات اقتصادية، إلى سوء استغلال للنظم الديمقراطية، وتدهور في القيم الخلقية. فالمعرفة الدقيقة المتعمقة لقوانين التطور الاجتماعي، هي وحدها التي تمكنتنا من إيجاد الوسائل الأكيدة لعلاج الشرور

---

(١) أسس هذا العالم الكبير معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية. وكان من حظي أن تاملت عليه واشتغلت معه في بعض بحوثه في عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨. وقد تمنح الفرصة لنشر هذه البحوث في وقت قريب.

( ٩ )

والأخطار التي تتن منها الإنسانية في العصر الحاضر . وإن ماتسديه  
إلينا هذه المعرفة الاجتماعية من خدمات لا تقل عما أسدته معرفة  
قوانين العالم الطبيعي من خدمات للإنسان ، حين مكنته من الدفاع عن  
نفسه ضد الكوارث والوحوش الضارية والمجاعات والأوبئة ،  
وجعلته يستخدم مصادر الطبيعة ويسخرها لتحقيق الرقي وتوفير  
الرفاهية لنفسه ولمجتمعه .

وقد عنى المؤلف في كتابه عن الاجتماع الاقتصادي ، بدراسة  
ظاهرة تقسيم العمل من حيث الأسس التي قامت عليها ، ودرجات  
هذا التقسيم والفوائد التي يحققها للمجتمع . وأتاحت له هذه  
الدراسة فرصة الكلام عن علاقة الطبقات الاجتماعية — وعلى  
الأخص الطبقة الأرستقراطية — بتقسيم العمل ، وهو الموضوع الذي  
أفاض فيه الكتاب الذي نقدمه اليوم . ثم درس بعد ذلك العوامل  
التي تؤثر في الحياة الاقتصادية وقسمها إلى عوامل طبيعية  
أو جغرافية ، وعوامل عنصرية ، وعوامل سياسية ، وعوامل  
سكانية ، وعوامل روحية . وأفرد فصلا لدراسة أشكال الإنتاج  
فشرح الاقتصاد البدائي والاقتصاد العائلي ، ثم اتساع نطاق  
الإنتاج حتى أصبح ذا طابع عالمي . وانتقل بعد ذلك إلى الكلام  
عن مستوى المعيشة وعن كفاح الطبقات العاملة ضد العوز والفقير ،  
وتتبع نمو التشريعات الاجتماعية التي أصدرتها الدول المنحضرة

لتأمين العمال ضد عسف أصحاب العمل وضد البطالة والعجز والإصابات .

أما كتاب « طبقات المجتمع » فقد تتبع فيه الأصول التاريخية لنشأة الطبقات ، وهو منهج حرص على بيان أهميته بقوله : « إننا لا نستطيع أن نفهم ظاهرة في مجتمعاتنا الحالية إلا بالرجوع إلى أصولها الأولى » . وبدأ الكتاب بمقدمة عن معنى الطبقة الاجتماعية شرح فيه أهم العناصر التي تدخل في تحديد هذا المعنى ، وهي الثروة والحرفة ونوع الحياة ، وأكد داخل هذه العناصر وتشابكها بحيث لا يمكن فصل أحدها عن بقية العناصر الأخرى . وانتهى من هذه المقدمة إلى القول بأن الطبقة الاجتماعية وإن كانت حقيقة ماثلة في كل مجتمع ، إلا أننا لا يمكننا أن نحددها تحديداً صارماً كما نحدد الأشكال الهندسية .

وفي الفصل الأول تكلم المؤلف عن عامل الثروة وأثره في كسب النفوذ والسيطرة . وفي الفصل الثاني تكلم عن تكوين الطبقات الاجتماعية ، ونشأة علاقات التبعية بين رجل ورجل عن طريق نظام الرق ، وبين شعب وشعب عن طريق الغزو ، كما تكلم عن نشأة نظام الإقطاع وظهور طبقة رجال الكنيسة ، وعن الامتيازات التي اكتسبها النبلاء بفضل خدماتهم الحربية ، ورجال الكنيسة بفضل خدماتهم الثقافية . أما الفصل الثالث فقد كرسه للكلام عن تطور الطبقات ؛ فبين كيف تندمج بعض الطبقات في

بعض ، وكيف تصبو الطبقات الدنيا إلى الصعود والرقى ، على حين تنحط بعض الطبقات العليا إلى مرتبة أدنى بسبب ابتعادها عن فضائلها الأصلية وواجباتها الأساسية . وقد سنحت للمؤلف فرصة الكلام في هذا الفصل عن صعود طبقة البورجوازية بفضل حرصها على العمل والتفاني فيه والتمسك بالمبادئ الخلقية ، وتدهور طبقة النبلاء بسبب غطرستها وانغماسها في اللهو . وفي الفصل الرابع تكلم المؤلف عن الطبقات والحياة السياسية فوضح أثر القوانين في بيان حقوق الطبقات وواجباتها ، ونزوع الطبقات المختلفة للاندماج في الحياة السياسية والتأثير على الحكومات ، وأفاض في الكلام عن التنافس وأنواع النزاع بين الطبقات . أما الفصل الخامس والأخير فقد خصصه للكلام عن الاتجاهات والتيارات الخلقية عند الطبقات المختلفة ؛ فتحدث عن قواعد التأديب لدى كل طبقة ، وما تتميز به من عادات وما يسيطر عليها من آراء وأفكار متسلطة ، وختم بحثه بالكلام عن تأثير الطبقات بعضها في بعض من الناحية الثقافية .

فالكتاب — كما نرى من هذا العرض السريع — يتميز بالإصالة والإحاطة بالموضوع من شتى نواحيه . كما أن له ميزة أخرى وهي عرض النظم من ناحيتها التاريخية عرضاً مبسطاً ووافياً في الوقت نفسه ، فأتاح بذلك للقارئ العادي فرصة الشكف واكتساب المعلومات العامة دون عنق أو إرهاق .

( ١٢ )

وكل ما نرجوه هو أن ينتفع به قراء العربية ، ويجدوا فيه  
متعة وثقافة تعدل الجهود التي بذلت في ترجمته ومراجعته .  
ولا يسعني في ختام هذا التقديم إلا أن أنوه بالجهود الطيبة والمعونة  
الصادقة التي قدمها لي الزميل الأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح  
حتى خرج الكتاب في صورته النهائية .

وإني إذ أقدم له شكري ، أرجو أن يوفقنا الله وإياه للخدمة  
العلم والثقافة وأن يعيننا على القيام بنصيبنا في خدمة الوطن .

الصير محمد بروى

أكتوبر سنة ١٩٥٦

## أهم مؤلفات المؤلف

### أولاً : في الفلسفة

1. Le fondement psychologique de la morale (1909). Epuisé.
2. Romantisme et Religion ( 1910 ). ( Recompensé par l'Institut ).
3. Esquisse d'une philosophie de la nature (1912).
4. Romantisme et Politique (1924).
5. Les Passions Humaines (1928).
6. Les Sentiments et l'Intelligence(1930).

### ثانياً : في تاريخ الفلسفة

7. Exposé critique de la philosophie de Berkeley (1920) (Recompensé par l'Institut.)

### ثالثاً : في علم الجمال

8. L' Esthétique de Victor Hugo . Le pittoresque dans le lyrisme et dans l'épopée (1920).

( ١٤ )

رابعاً : دراسات عنصرية وتاريخية

9. L' Allemagne contre la France (1923).

خامساً : في الاجتماع

10. Petit traité de Sociologie Economique  
(1931).

11. Les Classes Sociales ( Que sais-je ? )  
(1949).

# مقدمة

## ما هي الطبقة الاجتماعية؟

الطبقات حقائق اجتماعية تقوم في كل مجتمع بالرغم من جميع النظريات وجميع العبارات التي تحاول إنكارها . وبين لنا التاريخ وجود طبقات مختلفة عند جميع الشعوب ، كانت تتعاون في هدوء أحيانا ، وكان يقوم بينها الصراع أحيانا أخرى ، كما كان يحدث بين طبقة الدهماء وطبقة الأشراف<sup>(١)</sup> في روما القديمة .

وقد دلت بحوث الأثنوغرافيا ( وصف الأجناس البشرية ) كذلك على وجود الطبقات حتى في الشعوب البدائية . وفي الديمقراطيات الحديثة ، كما في الديمقراطيات القديمة ، ينتخب الناس من يمثلونهم وفقا لمصالح الطبقات . ويزداد وضوح حقيقة الطبقات في حياتنا الجارية . فالمرء يولد في طبقة معينة ويختلط بأفراد من الطبقة التي ينتمى إليها ويختار زوجه عادة في محيط طبقته ، وقد يرتفع المرء من طبقة إلى أخرى أو يهبط من طبقة إلى طبقة أدنى ، فهناك الوصوليون ومن لفظتهم طبقتهم ، ومصير كل فرد يرتبط إلى حد كبير بالطبقة التي ينتمى إليها وقد كتب لويس روجيه Louis Rougier في هذا المعنى يقول : « إن وجود كل إنسان يحدد وينظم مقدما كقصيدة شعرية جميلة » ، ولم يخطئ حين أضاف إلى ذلك « أن هذه

---

(١) طبقة الدهماء Les Plébeiens وطبقة الأشراف Les patriciens

الحقيقة تصدق دائما في أى زمان وفي ظل أى نظام سياسى، وإن اختلفت حدودها سعة أو ضيقا .

فماهى إذن الطبقة الاجتماعية على التحديد؟ ...  
إن هذه الكلمة تجرى على ألسنتنا دائما فى أحاديثنا الخاصة ،  
ونراها فى الجرائد وفى المنشورات الانتخابية ، وفى برامج الأحزاب ،  
ونحن نسمع فى كل لحظة عن الصراع بين الطبقات ، وعن تعاون  
الطبقات وعن فكرة وجود مجتمع بغير طبقات الخ . . . . .

إن كل إنسان يكون لنفسه رأيا عن الطبقات الاجتماعية ،  
ولا يشك فى أنه يفهم جيدا معنى هذه الكلمة . ومع ذلك فلو سألنا  
أحدا من هؤلاء الذين يتحدثون عنها أن يعطينا تعريفا لها ، أو يحدد لنا  
بدقة ماذا تعنى ، فإن قليلا منهم من لا تمتلكه الحيرة أو لا يظهر  
فى تفسيره ما يدل على عدم وضوح هذه الفكرة لديه .

وما ذلك فى الواقع إلا لأن الطبقة الاجتماعية على درجة  
كبيرة من التعقيد ، فالحقائق التى تعرف بها الطبقة مختلفة من حيث  
طبيعتها أشد الاختلاف كما أنها تتفاوت تفاوتا كبيرا من حيث  
أهميتها . إن الحقيقة الاجتماعية التى نريد الكلام عنها لا يمكن  
الإحاطة بها بنظرة واحدة فيجب أن ننصرف إلى تحليلها .

### الثروة :

والثروة هى أول ما ننفكر فيه حين نتكلم عن الطبقات . والواقع

أن أحدىنا العادية تدور حول الطبقات الغنية، والطبقات الفقيرة، والطبقات المتيسرة، والطبقات المتوسطة، وطبقة الملاك، وطبقة المعدمين الخ. . . ويميز « جيزو Guizot » من هذه الناحية بين ثلاثة أنواع من الحالات الاجتماعية . فهناك أولاً من يعيشون على أملاكهم العقارية أو ثروتهم المنقولة، أى على الأراضى أو رؤوس الأموال، بدون أن يحاولوا زيادة ثروتهم عن طريق العمل . وهناك من يجهدون فى استغلال ثروتهم وزيادة أملاكهم عن طريق عملهم الخاص . وأخيراً هناك من يعيشون من عملهم دون أن يكون لهم أملاك أو رأس مال . وهذه الأنواع — كما يقول — تعبر عن حقائق عامة نستطيع أن نعثر عليها فى أى مجتمع إنسانى .

ويميز شارل جيد « Gide » بدوره — من حيث توزيع الثروة — بين ثلاث طبقات أو فئات ، إذ يقول فى كتابه « محاضرات فى الاقتصاد السياسى » ،<sup>(١)</sup> إن « هناك أولاً العمال الذين يتقاضون أجراً، ثم الرأسماليين الذين يحصلون من رأسمالهم على ربح وأخيراً الملاك الذين يعيشون على دخلهم . وفيما عدا هذه الفئات لا يوجد إلا المعدمون الذين يعيشون على الصدقات والدولة التى تحصل الضرائب ، . »

المهنة :

ولكن هيئات أن تكنى الثروة وحدها لتحديد الطبقة ، فلمهنة على الأقل من الأهمية ما للثروة . وتشهد بذلك العبارات التي تسجل تلقائيا ملاحظات الناس . فهم يتحدثون دائما عن طبقة العمال وطبقة الفلاحين ، وعن طبقات التجار ، والصناع ، وأصحاب المهن الحرة الذين يعتبرون طبقة واحدة . ويميز شارل جيد من هذه الناحية بين طبقتين كبيرتين تنقسم كل منهما إلى فئات . فهناك من ناحية ، طبقة الرأسماليين ، وتضم طائفة ذوى النشاط الإيجابي أو أصحاب المشروعات التي تدر الربح ، وطائفة السليبين ، وهم الملاك الذين يعيشون على دخلهم . وهناك من ناحية أخرى طبقة العمال ، وتشمل فئات الأجراء<sup>(١)</sup> من عمال الزراعة والصناعة والمستخدمين والموظفين والخدم ، كما تشمل ذوى الأعمال المستقلة ، كالصناع<sup>(٢)</sup> والفلاحين والمستأجرين وأصحاب المتاجر وأصحاب المهن الحرة . وهؤلاء جميعا يكونون ما نطلق عليه عادة اسم الطبقات المتوسطة .

وفي كثير من الحالات تبدولنا الطبقة مستقلة عن الثروة ومتصلة بالوظيفة ، فالصايغ الفنئ L'artisan يتميز عن العامل حتى ولو كان كسبه لا يتعدى أقل أجر يتقاضاه العامل ، وما ذلك إلا لأنه

---

Les salariés (١)

Les artisans (٢)

لا يخضع لصاحب عمل بل ، يظل في عمله سيد نفسه . ويروى لنا « رينيه كاييه René Caillé » وهو أول أوربي وصل إلى تومبكتو<sup>(١)</sup> أن الأفراد الذين يعملون نظير أجر يومي ، يعاملون كأفراد طبقة دنيا . ومعنى ذلك أن طبيعة العمل هي التي تحدد الطبقة التي ينتمى إليها الفرد .

ومع ذلك فالمهنة وحدها لا تكون الطبقة ، إذ أن الطبقة سابقة على المهنة : فالإنسان يولد في طبقة معينة على حين أنه يختار مهنته فيما بعد . أضف إلى ذلك أن الطبقة كثيراً ما تؤثر في اختيار المهنة فهناك مهن يقتصر في ممارستها على التوارث من الأب إلى الابن كمهنة الزراعة أو التعدين أو الصيد ، فلا يتصرف امرؤ إلى فلاحه الأرض أو لا ينزل إلى المنجم ولا يواجه أخطار البحر في قارب للصيد ، إذا لم يولد في الوسط الذي يعيش على هذا النوع من العمل ، فيزاوله مقتدياً بذيويه . والبورجوازي لا يمكن أن يمتحن مهنة النجار أو القفال أو الحداد أو الخباز فضلاً عن مهنة الفلاحة . وإذا كانت هناك حالات شاذة فهي بلا شك نادرة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الطبقة الواحدة تضم عادة أشخاصاً من مهن مختلفة : فترى مثلاً أن الأطباء والمحامين والموثقين والأساتذة ينتمون إلى طبقة أصحاب المهن الحرة . فتشابه العمل وما يتطلبه من معرفة

---

(١) في أفريقيا الاستوائية الغربية .

ومعلومات ، وخلوه من المجهود الجسماني الأليم ، الذي قد يعرقل عمل الفكر ، كل ذلك يكفي لإدماج هذه الفئات الاجتماعية المختلفة في طبقة واحدة . كذلك الحال في طبقة العمال ، فإنها تشمل حرفا من أنواع مختلفة كحرفة البناء والطلاء وصناعة الزجاج والعمل في المصانع المختلفة الخ . . وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الطبقة أوسع من الحرفة أو المهنة .

### نوع الحياة :

من هذا نرى أنه لا الثروة ولا المهنة تكفي وحدها لتحديد الطبقة . ذلك أنه يجب في الواقع — إذا تفاوتت الثروة — أن ندخل في اعتبارنا طريقة الاستمتاع بها ، وإذا كانت المهنة واحدة وجب أن نراعي الظروف التي تمارس فيها . فالتاجر مثلا ينتمي إلى الطبقة الوسطى ( البورجوازية ) (١) إذا كان صاحب متجر كبير ولا يظهر في محل تجارته إلا للتوجيه وإعطاء الأمر لمستخدميه ، وهو مجرد بائع إذا كان يقوم بوزن السلع ويخدم زبائنه بنفسه . والبرجوازي المتلاف الذي يقضى معظم وقته متبذلا في المقاهي يختلط بكل من هب ودب ، ويغرق نفسه في الديون ، ويشعر دائماً

---

(١) — البورجوازية اسم يطلق على الطبقة الوسطى وتضم عادة التجار وأصحاب المهن الحرة ورؤساء العمل وهذه الطبقة لها روحها المحافظة وتقاليدها الخاصة ولا تبيل كثيرا إلى الاندماج مع الطبقات الأخرى ( المترجم )

بأن مالديه من مال يعجز عن سد مطالبه - هذا الشخص تنطبق عليه صفة البورجوازي .

وعلى العكس من ذلك فالعامل الذى يكسب أجراً طيباً من عمله إن كان يعمل بهمة وجد ، ويقتصد جزءاً من كسبه ، ويقتنى حديقة صغيرة يزرعها ، وتشرف على منزله زوجة مدبرة تتقن وظيفتها كربة بيت ، وترى أولاده تربية قويمه - مثل هذا العامل يعيش عيشة برجوازية بالرغم من أنه يمارس حرفة يدوية ، وكثير من العمال فى الولايات المتحدة يتمتعون فى منازلهم بغرفة استحمام كاملة ، ولكل سيارة وجهاز الراديو ، وكذلك الحال فى استراليا ، إذ يتطلع العامل لأن يكون له بيت مستقل ، يحتوى على حمام كامل ، وأن يتناول اللحم فى وجبة الافطار وفى العشاء ، وأن يلبس ملابس بورجوازية . وعمال الآلات الزراعية على الخصوص يقتنى كل منهم حلة ( سموكنج ) يرتديها عند الذهاب لقضاء سهرة فى المسرح .

إذا نظرنا إذن إلى كل هذه الظروف والاعتبارات نجد أن الطبقة العاملة تقترب من البورجوازية ، وبالعكس نجد أن الهزات العنيفة التى أحدثتها الحرب الأخيرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥ فى ثروات وحظوظ بعض الناس قد قربت نوع الحياة التى كانت تحياها الطبقات المتوسطة من حياة العمال . وقد حدث مثل ذلك فى ألمانيا عقب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ . ومن المؤلفين أن نرى اليوم فى أوروبا رجالاً متقاعدین من الضباط العظام

والأساتذة أو مفتشى التعليم وهم عائدون من الأسواق إلى منازلهم يحملون الخبز، وقناني النبيذ، وسلال المئون، أو يكدسون أمام منازلهم إلى غير هذا من الأعمال التي ما كنا نراها قط من قبل والتي ما كان أمثال هؤلاء الناس يقبلون القيام بها. كما أن قانون التركات<sup>(١)</sup> وزيادة الضرائب العقارية، مع حظر رفع الإيجارات، والغلاء المتزايد في أثمن الحاجيات، كل ذلك كان من شأنه ضعضعة حال صغار الملاك وذوى الدخل الصغير، فأخذت البورجوازية الجميلة - ذات التقاليد التي كانت قديماً سر قوة بلد كفرنسا مثلاً - أخذت تنحدر وتميل إلى الاندماج في الطبقات العاملة.

وهكذا نرى أننا وقعنا على عامل ثالث من العوامل التي تؤثر في تحديد الطبقة الاجتماعية ألا وهو «نوع الحياة»، وهو عامل يتصل بالمظهر والثقافة، بقدر ما يتصل بالطريقة التي تمارس بها المهنة، وبالوسائل التي يستخدمها الفرد للاستمتاع بثروته. فلكل طبقة سلوكها الخاص وطريقتها في الغذاء وتفضيل بعض أنواع الطعام وطريقتها في اللهو وقضاء أوقات الفراغ وفي تنظيم مصروفاتها كما أن لها عاداتها الجسمية والفكرية وتتميز بالفاظ معينة وطريقة خاصة في الكلام.... الخ.

وتصرفات كل طبقة، تحددتها أنواع الأعمال المادية التي تقوم بها والمهنة أو الحرفة من ناحية، وكذلك الثروة من ناحية ثانية، كما تحددتها

(١) الموازين التي تطبقها الدولة الحق في الاستيلاء على نسبة من التركة وهذه النسبة تصاعديّة ترتفع كلما زادت قيمة التركة.

الثقافة من ناحية ثالثة . وهذا التشابه في التصرفات والأذواق الذى تحدده هذه العوامل الثلاثة هو الذى يتيح لأشخاص من مهن متشابهة أو على ثراء متقارب ، أن يتحدث بعضهم إلى بعض وأن يتفاهم بعضهم مع بعض ، وينصرفون إلى أنواع واحدة من اللهو ويجدون متعة فى أشياء معينة ، ويتخذ بعضهم بعضاً نموذجاً ، خصوصاً فيما يتعلق بالأزياء والرحلات ، وقضاء العطلة ، واختيار الكتب والملاهى ووسائل تربية الأطفال الخ ...

#### التربية والثقافة :

كما تقدم نستطيع أن نتميز الأهمية الكبيرة للتربية والتقاليد فى الطبقات العليا من المجتمع . وقد لاحظ كارنو « Carnot »<sup>(١)</sup> بحق أن عدم المساواة فى الثروة أقل ، فى أهميته وخطره من عدم المساواة فى التربية . وفى هذا يقول إن الثرى الذى ينتمى إلى طبقة عليا — حتى ولو كان جاهلاً — يحتفظ من طفولته التى قضاها فى وسط مستنير بأفكار عامة أولية وبدرجة من الامتياز فى اللغة والتعبير ، يتعذر إدراكها عن طريق الدرس والتحصيل . ويضيف « كارنو » إلى ذلك أن الإنسان إذا لم يكن مزوداً بهذا القدر من الثقافة الأولى ( أى ثقافة الوسط الذى ينشأ فيه ) شعر

---

( ١ ) رجل من رجال السياسة الفرنسيين انتخب عضواً فى الحكومة المؤقتة سنة ١٨٤٨ ، وهو ابن العالم الرياضى الكبير الذى نظم جيوش الثورة الفرنسية ولقب لذلك « بمنظم النصر » .  
( المترجم )

بالمهانة وبأنه غريب متى اتصل بأناس تميزوا عليه من هذه الناحية .  
أما إذا كانت الثقافة الأولى واحدة أصبح التفاهم بينهم سهلا .

وما لاحظته «كارنو» في آخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن  
التاسع عشر لاحظته «رابازا Rabasa» في المكسيك حيث تميز  
الطبقات الاجتماعية — كما يقول — تميزاً واضحاً، وتتفاضل  
تفاضلا يرجع في المقام الأول إلى عامل التربية وحده تقريباً .

« فالثروة لا تتدخل إلا قليلا وبالقدر الضروري الذى يكفى  
لإعطاء المظهر للطبقة العليا، أما السلالة فلا أثر لها في تحديد الطبقة.  
فالهندي الذى يتمتع برقة المظهر وحسن المعشر، يستطيع أن يتخذ  
طريقه إلى أرقى الأوساط بنفس الحرية التى يتمتع بها الأبيض،  
ويستطيع كذلك أن يشغل أعلى الوظائف الخ . . . . وقد لاحظ  
« فرنان جرينار Grenard » ملاحظات من هذا القبيل في روسيا  
القيصرية فلم تكن كتلة العامة أو الرعاى تتألف من الفقراء  
وخدمهم — وهو يقول « لقد عرفت هناك كثيراً من أصحاب الملايين  
لا يعرفون القراءة أو الكتابة : وهم لا يخرجون عن كونهم  
فلاحين أغنياء ومرابين يعيشون كما يعيش جيرانهم من الفلاحين  
الحقيقيين. هؤلاء الأغنياء الذين كانوا يعدون بمئات الألوف كانوا  
في نظر المجتمع من العامة . إذ أن التميز لا يرجع إلى الحالة المادية  
بقدر ما يرجع إلى الثقافة والمظهر . »

وعلى هذا الأساس يجب الاعتراف بأن هناك طبقات مثقفة وطبقات غير مثقفة ، طبقات تضم أناساً تميزوا بسمو التربية وأخرى يتجرد أفرادها على الأغلب من عناصر التربية الممتازة . وفي النوع الأول يعلق الأفراد أهمية كبرى على الثقافة لذاتها ويعملون على التزود بالثقافة لاهتمامهم بالأدب والفنون والفلسفة والعلوم . وهم يقدرون إلى أسمى درجة قوة العقل والمواهب الممتازة ، وأرفع أنواع التأدب والرفقة في الحديث والمقابلة . أما في النوع الثاني فإن التعليم لا يقدر إلا بقدر منفعة العملية ، والثقافة الممتازة لا نصيب لها إلا الإهمال . أما طرائق التأدب ولطف المعاملة فيحكم عليها بأنها نوع من النفاق أو الخذلقة ، ولا يكون نصيبها إلا التهمك بدافع الحسد أو الاحتقار بدافع الغلظة والخشونة . ويكون هذا بمقدار ما تكون غريبة عن خلق القوم وطرقهم في التعامل .

#### التأثير المتبادل بين جميع هذه العناصر :

بدأت لنا العناصر المختلفة التي تحدد معنى الطبقة وهي الثروة والمهنة والتربية ونوع الحياة والثقافة ، كما لو كان كل منها مستقل عن الآخر استقلالاً نسبياً ، فهي لا تتضمن بعضها البعض بالضرورة . ولكن إذا كان من الممكن وجود بعضها دون البعض الآخر أحياناً فهذا لا يبنى تضافرها في كثير من الحالات . فالثروة والمهنة مثلاً تنزعان إلى تحديد نوع الحياة وقد لاحظ «اتيين مارتن سان ليون Etienne Martin-Saint Léon» بهذا الصدد أن المستخدم من عادة —

إلا قليلا من الفئة الدنيا — لا يخاطبون بعضهم بصيغة «الانت»،<sup>(١)</sup> كما يفعل العمال ولا يقرعون كؤوسهم وهم وقوف أمام «بارات»، حانات النبيذ، كما أن زوجاتهم لا يذهبن إلى «المغسل العمومي»، كزوجات العمال. أما أغنياء الناس فلهم حياتهم الاجتماعية التي تزخر بالاستقبالات والمسالى مما يستحيل وجوده بدون الثروة.

ومن جهة أخرى فإن المهنة لها بالضرورة علاقة بالثروة، فمن المهن ما يتقاضى عليها صاحبها أجراً أو مرتباً يرتفع أو ينخفض حسب مكانة المهنة، ومنها ما يدر أرباحاً مغرية والثروة تكون في أغلب الأحوال من حظ رجل الصناعة أو التجارة لا من نصيب الموظف الصغير كما أن الثقافة بدورها لها علاقة بالمهنة. فنحن نجد لها عند الجامعيين والأطباء وضباط البحرية مثلاً أكثر مما نجدها عند المشتغلين بالصناعة أو بالتجارة. وقد يكون لها من بعض النواحي علاقة بالثروة: فالثروة تتيح لصاحبها أن يتمتع بجميع أنواع اللذات، سواء أكانت أكثرها سمواً أو أحظها درجة، كما تتيح لمن يعرفون كيف يستخدمونها وسائل الاستمتاع بالثقافة العالية واكتساب اللغات المختلفة بالتردد على البلاد الأجنبية، وطول الإقامة بها أو بأخذ دروس فيها على يد أقدر الأساتذة: كما يتيح المال كذلك تذوق الفنون والآداب ودراستها بالزيارة المتصلة للمتاحف وحضور

(١) — في فرنسا يرفع العمال السكامة فيما بينهم ويخاطبون بعضهم بالضمير المفرد «tu» أنت بدلاً من ضمير الجمع «Vous» كما يفعل الناس عادة. ( المترجم )

الحفلات الموسيقية والمسرحية وعن طريق اقتناء مكتبة غنية بالمؤلفات، كذلك عن طريق تكوين العلاقات مع ذوى الثقافة الممتازة أو الذين يشغلون مناصب رفيعة أو مع الكتاب ذوى الشهرة أو الفنانين ذوى المواهب الخ . . . .

### صعوبة تحديد معنى الطبقة :

إن تداخل العوامل المختلفة التي ذكرناها ، يجعل من العسير علينا أن نحدد معنى الطبقة بوضوح ودقة ، كما تحدد الأشكال الهندسية كاللدائرة أو الشكل المتعدد الأضلاع مثلا ، أو كما تحدد المعانى الاختبارية فى العلوم الطبيعية ، كعنى الزواحف أو الثدييات أو القوارض أو الحيوانات المجترة . فالطبقة ليس لها حدود مرسومة بدقة كما هى الحال فى الطائفة أو الفئة الاجتماعية ، ولا نستطيع أن نقول بالضبط أين تبدأ حدودها وأين تنتهى . كما أن الطبقة الواحدة تضم بين ثناياها فئات تتنوع أشد التنوع . فنوع الحياة والتربية والثقافة ، قد تختلف فى الواقع بين أناس يمارسون مهنة واحدة أو يملكون ثروات متساوية ، وقد يحدث على العكس أن تتشابه هذه النواحي فى أناس يمارسون مهناً مختلفة أو يتفاوتون من حيث درجة الثراء . وقد يفسح النبوغ أو الثقافة الممتازة أو الشهرة المجال أمام كاتب أو فنان كبير أو واعظ فصيح بليغ فيختلط بأناس ويندمج فى أوساط ما كان له أن يندمج فيها لو نظرنا إلى أصله أو مهنته أو أعماله العادية . وهناك أسر عريقة فقدت ثروتها ولكنها

ظلت تحتفظ بعاداتها وطرق معيشتها التي كانت تتيحها لها ثروتها الغابرة وبعلاقتها مع الأوساط التي عرفتها أيام ثرائها وبمظهرها الممتاز الذي اكتسبته بفضل الثروة . كذلك يحتفظ حديثو النعمة أو أغنياء الحرب — كما اعتدنا أن نسميهم — بعاداتهم وطرق معيشتهم القديمة التي لا تتناسب مع وضعهم الجديد .

لهذه الاعتبارات جميعا يمكن القول بأن الطبقات حقائق اجتماعية لا يمكن تحديدها تحديدا صارما : فهي في هذه الناحية شبيهة بتلك السحب التي تتشكل في السماء بأشكال مختلفة تحت تأثير الرياح أو بلك البقع الملونة التي ترسم على سطح البحر عند غروب الشمس في شكل دوائر ذهبية ولازوردية وظلال بدون أن نستطيع أن نحدد بدقة أشكالها أو ألوانها الحقيقية . ولهذا السبب نلاحظ في أحاديثنا الدارجة التي تسجل بطريقة آلية الملاحظات التلقائية لعامة الناس ، أن تصنيف الأفراد في طبقات يختلف باختلاف وجهات النظر والاعتبارات التي نضعها أمامنا . فنتكلم عن الطبقات الغنية أو المتوسطة أو الفقيرة حين ننظر إلى الثروة ونتكلم عن الطبقات المثقفة والطبقات الجاهلة حين لانضع في اعتبارنا إلا درجة التثقيف ونتكلم عن الطبقات المهذبة الممتازة الرقيقة ، وعن طبقات الأجلاف وخشني الطباع وعديمي الذوق ، حين لاننظر إلا في طرق التصرف ووسائل التعبير وفي هذا ما يعث على الاعتقاد بأن الطبقات ليست حقائق

في ذاتها بقدر ماهي وجهات ، نظر يكونها من يلاحظ مجتمعا من المجتمعات ، عن أفراد هذا المجتمع .

ومع ذلك فإن عدم تحديد فكرة الطبقة يجب ألا يكون وسيلة لتعريفنا . إذ أنه لا يحول دون أن تكون الطبقة إحدى المعطيات المشخصة التي يمكن تمييزها كما نميز في علم الحيوان أو النبات تقسيماته إلى شعب وفصائل وأسر ومراتب وأجناس وأنواع أو كما نميز الحيوانات الفقرية والضفادع والحشرات المجنحة . على أننا إذا دققنا النظر في العلوم الطبيعية ذاتها وجدنا أن التصنيفات فيها ليست إلا نسبية بحيث لا انفصل بين فصيلة وأخرى فصلا صارما . فهناك حالات كثيرة نجد فيها أن أحد الأنواع يوضع مع غيره في عائلة أو رتبة واحدة لاشتراكها معها في بعض الصفات ، ولكنه يختلف عنها اختلافا يبنياً في صفات أخرى . مثال ذلك الحيوان المسمى Ornithoryuque ( وهو حيوان يعيش في استراليا ) فهو يصنف عادة مع الثدييات لأن له ثديين ولو أنهما ضامران ولكن له إلى جانب ذلك منقار من مادة قرنية يقربه كثيراً من الطيور كما أنه يبيض في الأرض ويرقد فوق بيضه هذا إلى أنه يقرب كثيراً من الزواحف من حيث تركيب أعضائه الداخلية . ومثال آخر هذا الحيوان المائي المسمى dipnewste والذي يصنف مع الأسماك ومع هذا فله رتتان ( كالحیوانات البرية ) وخياشيم

(كالأسماك) ويتنفس بهذه أو بتلك حسب فيضان المستنقعات التي يعيش فيها بالماء أو نضها منه .

لذا لا يحق لنا بعد اقتناعنا بهذه الأمثلة أن نعرض عن اعتبار الطبقات الاجتماعية حقائق لها كيانها فانها في الواقع حقائق تفرض نفسها على عالم الاجتماع كما تفرض نفسها على المؤرخ .

فكل طبقة اجتماعية تتألف من عدد قل أو أكثر من الأفراد يتشابهون فيما بينهم في نواح معينة كنوع الحياة أو الحرقة أو الثروة والتعليم والثقافة ويختلفون عن غيرهم في هذه النواحي نفسها داخل نطاق المجتمع الواحد وكل طبقة تنشأ من تمايز تلقائي يحدث من ضغط الحاجات وتنوع أوجه النشاط في المجتمع ويتأثر بالزمن الذي يعيش فيه أفراد المجتمع . وهذا التمايز أساسه على التحديد تقسيم العمل الاجتماعي ووزيع الثروة واختلاف العادات باختلاف ظروف المعيشة التي يعيشها الأفراد . وتبدو الطبقة متماسكة وثابتة أمام عيني الناظر بمقدار ما تكون السمات المختلفة التي تميزها كالثروة والحرقة وغيرها — متمامة يؤثر بعضها في بعض . أما إذا كانت هذه السمات مستقلة بعضها عن بعض وعرضة للتغير ظهرت الطبقة في شكل مائع وغير محدد .

فيم تختلف الطبقة عن الطائفة وعن الفئة الاجتماعية ؟

في ضوء التحديد الذي أشرنا إليه تظهر لنا الطبقة الاجتماعية

متميزة عن كل من الطائفة La caste والاجتماعية Categorie Sociale .

أما عن الفئات الاجتماعية فيتمايز بعضها عن بعض على الدوام تمايزاً واضحاً لأن تصنيفها يقوم على خاصة أساسية واحدة أو مجموعة من الخصائص يتماسك بعضها ببعض تماسكاً وثيقاً ، فهي تقوم مثلاً على الحرفة وحدها حين نتكلم عن فئة البنائين وفئة صانعي الزجاج وفئة الأساتذة وفئة الضباط الخ . . . أو على وسيلة الحصول على الدخل أو على المال اللازم للعيشة ، كما هي الحال حين نفصل بين فئة الملاك وفئة الأجراء وفئة المضاربين في البورصة boursicotiers وفئة المحتالين الخ . . . أو على الخلو من الحرفة حين نتحدث عن فئة المتسكعين Les oisifs وغيرها .

من هذا يتضح أن الطبقة الاجتماعية الواحدة تنطوي عادة على فئات اجتماعية مختلفة فطبقة الفلاحين مثلاً تضم الملاك الذين يستغلون أملاكهم بأنفسهم والمستأجرين والشركاء والعمال الزراعيين . وطبقة العمال ، تضم عمال المصانع وعمال المناجم وعمال السكك الحديدية وغيرهم .

وقد تنقسم الفئة الاجتماعية بدورها إلى فئات أكثر تخصصاً فتقسم فئة رجال القانون إلى محامين وموثقين ورجال استشارة ومحضرين huissiers . وفئة رجال التعليم إلى أساتذة ومعلمين إلى

غير ذلك . . . كما أننا نميز أيضاً بين رجال التعليم فئة مدرسي التعليم الحكومي ومدرسي التعليم الحر ، أو بين فئة معلمى التعليم الابتدائى وفئة مدرسي التعليم الثانوى أو العالى ، ويقوم التصنيف فى كل مرة على وجهة نظر محددة تستبعد غيرها من وجهات النظر .

وعلى العكس من ذلك فإن الطبقة عادة تكون ذات نطاق واسع جداً بسبب تعدد الصفات ووجهات النظر التى تدخل فى تعريفها . وحتى إذا اقتصرنا على النظر إلى الطبقة من زاوية خاصة كما هى الحال حين نتكلم عن الطبقات الفقيرة أو الطبقات المثقفة فإننا ندج فئات جد مختلفة فى مفهوم واحد .

فالطبقات الفقيرة مثلاً ، تشمل العمال الكادحين الذين يتقاضون أجراً زهيداً ولا يوفقون إلى وصل طرفى الشهر إلا بشق الأنفس ، كما تشمل المعوزين الذين يعيشون على الإحسان ، أو البوهيميين الذين لا يقر لهم قرار ويفتقرون دائماً إلى المال إما لأنهم ينفقون توماً ما يصل إلى أيديهم من مكاسب أو لأنهم يورطون أنفسهم فى ديون لا يستطيعون لها سداداً . وكذلك الحال فى الطبقة المثقفة فإنها تشمل أناساً ينصرفون إلى نواح من الدراسات العقلية تختلف فيما بينها أشد الاختلاف فمنهم الفلاسفة ومنهم المؤرخون ، ومنهم المشرعون ومنهم رجال الأدب ونقاد الفن ، هذا فضلاً عن العلوم المختلفة .

وإذا كانت الطبقة تتميز — كما بينا عن الفئة الاجتماعية ، فإنها تتميز كذلك عن الطائفة : فالطبقة على عكس الطائفة ليست مقفلة وإذا كان الإنسان منذ ولادته ينتمي بالضرورة إلى طبقة معينة فهو يستطيع أن يرتفع منها إلى طبقة أعلى . أما إن كان ينتمي إلى طائفة معينة فإنه يظل ينتمي إليها طول حياته ، كما كانت الحال في مصر الفرعونية وغيرها من الشعوب القديمة وكما نشاهده حتى الآن في الهند . ولا يستطيع أحد أن يخرج من طائفته عند الهنود إلا إذا ارتضى أن يتنازل عن الانتماء إليها ليهبط إلى طائفة « المنبوذين » .

وهناك صفة أخرى تميز بين الطبقة والطائفة في العصور الحديثة وهي أن الطبقة لا تتحدد عن طريق عرف أو قانون وضعي . ولكن الحال لم تكن كذلك في العصور القديمة عند اليونان أو الرومان مثلا ، حيث ميز القانون بين المواطن الحر والمعوق والرقيق . وكذلك كان يقسم المواطنون إلى طبقات حسب حالتهم أو ثروتهم لأسباب تتعلق بجباية الضرائب ، أو لأسباب حربية أو سياسية . ففي اليونان إذا صرفنا النظر عن الأرقاء الذين لم يكن لهم حق التمتع بأية حقوق مدنية ، كان التمييز قائما في أثننا بين المواطنين والأجانب الذين لهم حق الإقامة Les mé èques . وكان قائما في أسبارطة ، بين المواطنين وسكان البلاد المفتوحة الذين كانوا في وضع خاص بين الأحرار والرقيق Les périèqu s وبين الأرقاء

Les notes . فمن هذه الناحية كانت الطبقات تنزع في العصور القديمة نحو نظام الطوائف ومع ذلك فقد ظلت متميزة عنها بمقدار ما كان في وسع المرء أن يرتفع من طبقة إلى أخرى : إذ كان في استطاعة العبد أن يتحرر وكان ابن المتحرر يولد حرا . وعند قبائل ( الأزتق Les Aztèques ) في المكسيك لم يكن أبناء العبيد يعتبرون عبيدا ، ولكن كانوا يدخلون في عداد الأحرار منذ ولادتهم وذلك على عكس ما كان قائما عند الشعوب الأخرى وعلى ذلك فلم يصطبغ نظام الرق لديهم بصيغة الطائفية . وعلى هذا النحو كان النظام الطبقي في روما يسمح بالارتقاء من مرتبة الفرسان L'ordre équestre إلى مرتبة رجال السناتو L'ordre Senatorial .

وفي فرنسا القديمة لم يكن ينظر أبدا إلى رجال الدين والنبلاء ورجال التشريع على أنهم وحدات طائفية . لقد كانوا يؤلفون مراتب حكومية دون شك ، إلا أنها كانت مفتوحة على مصراعها . فكانت طبقة رجال الدين مفتوحة بحكم طبيعتها لأنها تقوم على نظام العزوبة فلم يكن لعامل الوراثة فيها أدنى نصيب . وكانت طبقة النبلاء أيضا طبقة مفتوحة لأنه ، كان في الإمكان الوصول إلى مرتبة النبالة بأداء خدمات جليلة في المجال العسكري أو المدني . ونضرب مثلا لذلك حالة فابير Fabert ، جد أحد مرشالات فرنسا الذي ارتقى من عامل طباعة إلى طبقة النبلاء بفضل الخدمات التي أداها للملك وحدث مثل هذا في حالة أحد الضباط المدعو « شيفير

( ٣٥ )

Chevert فقد وصل إلى رتبة « مساعد كولونيل » (١) وهي أعلى رتبة كان يمكن أن يصل إليها فرد من عامة الشعب في ذلك الوقت ، ولا يستطيع أن يتخطاها ، ولكن أنعم عليه بلقب النييل ثم رقى إلى رتبة الكولونيل ، ثم إلى رتبة الجنرال ، كما هو مذكور على قبره في كنيسة سان اوستاش Saint Eustache بباريس . بل وقد حدث بعد ذلك أن أصبحت رتبة النبالة تشتري بالمال ، إذ وجدت الحكومة — ممثلة في مصلحة الضرائب — في ذلك مورداً هاماً يمكن استغلاله ولجأت إلى هذه الوسيلة في أواخر القرن السادس عشر واستمر هذا الوضع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

---

(١) وهي تعادل رتبة الصاغ في الجيش المصرى .

## الفصل الأول

### عوامل الصيت والنفوذ

نستطيع أن نميز في كل مجتمع طبقات عليا وطبقات متوسطة وطبقات دنيا، ولكن الدور الاجتماعي الذي تقوم به كل طبقة وأهميتها الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها تختلف بشكل واضح باختلاف الزمان والمكان .

وقد يكون تفوق طبقة من الطبقات مطلقاً أو نسبياً، فأحياناً يعزى هذا التفوق إلى النفوذ والصيت والثراء، كما كانت الحال في طبقة الأشراف في روما أو كبار أمراء الإقطاع في العصر الوسيط . وأحياناً يرجع التفوق إلى الصيت وحده دون قوة أو ثراء، كما حدث للفنانين في عصر النهضة في الجمهوريات الإيطالية الصغيرة، أو كما نشاهده اليوم في بقايا طبقة النبلاء العريقة بأوروبا التي استطاعت أن تحتفظ بشيء من وضاءتها وعراقبتها في أعين الأغنياء من السياح الأمريكيين، بل وفي أعين بنات محدثي النعمة بأوروبا نفسها .

وإذا كانت الشهرة التاريخية التي ترتبط باسم من الأسماء على أثر الخدمات التي أداها للدولة ما زالت قائمة بالرغم من القوانين

التي ألغت نظام النبالة ، فإن الثروة قد أصبحت مصدرا آخر من مصادر الصيت كما هي حال الملايين من الأمريكيين الذين يلقبون « بملوك البترول » أو « الحديد » مثلا . وقد كانت هولنده في القرن السابع عشر ، البلد الوحيد الذي لا يعرف ألقاب النبيل وكانت جمهورية « بورجوازية » يسيطر عليها التجار وأصحاب البنوك ، ولذا كان المال فيها المصدر الطبيعي لكسب الصيت . ومع ذلك فإن الثراء يفقد كثيرا من الاعتبار ، إذ لم يصبحه كرم معقول وطباع رقيقة وثقافة وذوق فني ولا أدل على ذلك مما يجرى على السنة الناس من ألقاظ تتم عن السخرية والاحتقار حين يتحدثون عن « محدثي النعمة » أو « أغنياء الحرب » ، وقد كان هذا شعور الناس في جميع العصور .

وهناك نوع من الصيت لا يقام له اعتبار ، إلا في فئات اجتماعية معينة من دون المجتمع في مجموعه . ويروى الكونت دي سيجور de Ségur في هذا الشأن ظاهرة غريبة : فقد لاحظ عدد الخدم الضخم الذي يبعث على الدهشة في روسيا القيصرية ولم تذهب دهشته إلا حين علم أن هؤلاء الخدم الذين ينتزعون من طبقة الفلاحين ينظرون إلى الخدمة في المنازل على « أنها نوع من الارتقاء والحظوة » ويعتقدون أن الزج بهم في أعمال الحقول نوع من العقاب أو التجريد من الرتبة التي حصلوا عليها . فطبقة الخدم إذن كانت

تعد في نظر هؤلاء الفلاحين طبقة أعلى من طبقة « الموجيك »<sup>(١)</sup> ، ومن جهة أخرى فإن بعض الطبقات التي تعتبر دون غيرها قد يصبح لها في بعض العصور نفوذ سياسي أكبر من نفوذ طبقة تعرف بسمو مركزها . ويحدث هذا حين تنعدم العلاقة بين القوة الحقيقية وبين النفوذ الاسمي . فبالرغم من أن النبالة لم تفقد شيئاً من نفوذها أثناء حكم لويس الرابع عشر ، وبالرغم من أن كثيراً من البورجوازيين وأولهم « كولبير »<sup>(٢)</sup> Colbert ، كانوا يطمحون في الوصول إلى النبالة بالبحث عن أسلاف نبلاء ينتمون إليهم ، إلا أن دوق سان سيمون قد أفصح في شكوى مرة عن قلقه من « حكم الغوغاء والبرجوازية الخسيسة » وذلك لأن البورجوازية كان لها في هذا العهد نفوذ حقيق يفوق بكثير نفوذ طبقة النبلاء .

### الخدمات التي تؤذيها المهنة :

على قدر ما تعرف الطبقة الاجتماعية بوظيفتها يكون الصيت الذي تتمتع به منوطاً بصيت المهنة . ويمكن رد صيت المهنة

(١) كما تطلق كلمة فلاح في اللغات الأجنبية Feliah على من يعملون في الزراعة من سكان الريف المصرى ، فكذلك تطلق كلمة Moujiks على الفلاح الروسى الذى يعمل أجيراً . ( المترجم )

(٢) رجل من كبار رجال السياسة في فرنسا في القرن السابع عشر وابن تاجر أفقشة عينه لويس الرابع عشر في سنة ١٦٦٤ مراقباً عاما للمالية . ( المترجم )

إلى مصادر ثلاثة : قيمة الخدمات التي تؤديها والرجح الذي يحصل عليه من ممارستها والمشاعر الجمالية التي تولدها في نفوس من يقدرونها . وعلى هذا الأساس فإن صيت طبقة معينة يتوقف على أهمية ما تؤديه من خدمات ، وعلى ما تدر وظائفها من ربح ، ثم على ما يحيط بها من بريق ينبجم عن ممارسة هذه الوظائف .

ويقدم لنا التاريخ من الأمثلة أكثر مما نستطيع حصره في هذا المجال ، وتاريخ اليونان القديم وحده يعج بهذه الأمثلة : ففي إقليم « بيوشيا Beotie » مثلا حيث كانت الزراعة سائدة كان ينظر إلى هذه المهنة نظرة احترام وتقدير ، على حين أن الصناعة والتجارة اللتين لم يكن لهما نصيب كبير من الانتشار ، كانتا في نظر الناس مهنتان حقيرتان<sup>(١)</sup> . وفي طيبة اليونانية كانت عضوية المجالس التشريعية تحرم على التجار لمدة تصل إلى عشر سنوات من تاريخ تركهم مهنة التجارة وعلى العكس من ذلك نجد أن العمل اليدوي في « كورنثه Corinthe » كان يعتبر من الأعمال المشرفة ، على خلاف ما كان شائعا في غيرها من المدن اليونانية ذلك أن لزراعة كانت مستحيلة في هذه المدينة بسبب التربة الحجرية والرياح ، ولأن

---

(١) مازال ملاك الأراضي الزراعية في الريف ، والموظفون في المدن عندنا ينظرون إلى المهن البدوية ، وتجارة التجزئة على الخصوص على أنها مهن حقيرة . أما في أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص فإن العامل يحتل من الناحية الاجتماعية ، مركزاً لا يقل عن مركز أى فرد من أفراد الطبقات الأخرى كالموظفين أو المشتمس بالأعمال الذهبية .  
( المترج )

عمليات التصدير الصناعية كانت ضرورية لانتعاش التجارة التي كانت تعيش عليها المدينة، وكان عدد كبير من العبيد، بل ومن المواطنين الأحرار يشتغلون بصنع الأقمشة والأثاث والمرايا والأواني الفخارية الخ . .

فإذا انتقلنا من اليونان القديمة إلى الصين نجد، أن مجموعة الـ « تشيولى Tchéouli »، وهي مجموعة ضخمة من اللوائح ومبادئ الحكم والشعائر والواجبات بأنواعها المختلفة والتي تعتبر الدستور الذي ينظم الحياة الصينية في أدق تفاصيلها - هذه المجموعة ترتب الحرف المختلفة حسب أهميتها على الوجه الآتي :

( ١ ) الزراعة ومنتجات الحبوب .

( ٢ ) زراع الحدائق والأراضي التي تخصص لزراعة الخضروات وأشجار الفاكهة .

( ٣ ) الخطابون ومستغلو الغابات .

( ٤ ) المشتغلون بتربية المواشى والدواجن .

( ٥ ) التجار .

( ٦ ) الزوجات اللاتي يفسجن القنب والحريز ويصنعن الملابس .

( ٧ ) الخدم

وفي أسفل درجات السلم بوضع المتشردون الذين ليست لهم حرفة ثابتة . أما في القمة فالامبراطور ابن السماء والقطب الأعظم وهو الزارع الأول في الصين .

ويحدثنا « مومسن Mommsen » أنه كان من المتبع في روما القديمة — وفي غيرها من البلدان في مطلع الحضارة — أن ينظر إلى العامل الذى يصنع المحراث أو السيف بعين الاعتبار التى ينظر بها إلى من يستخدم هاتين الأدواتين . وكان البون شاسعا بين هذه النظرة ونظرة الاحتقار التى تولدت فيما بعد لكل ما يتصل بالعمل اليدوى والصناعة وهى الحرف التى سماها « رابليه Rabelais »<sup>(١)</sup> ، متأثرا برأى أهل زمانه « الحرف المنحطة والآلية » . وقد لاحظ « والتر سكوت » الملاحظة نفسها فى كتابته لتاريخ اسكتلنده : فالحداد الذى ينتمى إلى عشيرة من سكان الجبال الاسكتلنديين كان يعد شخصية على جانب كبير من الأهمية فكان يمثل عادة مرتبة ضابط ثالث فى منزل رئيس العشيرة وكانت مهارته فى صنع الأسلحة والدروع لا تقاس بقوته الجسمية التى تستلزمها هذه المهنة فحسب بل بمهارته فى استخدام هذه الأسلحة أيضا مما رفع من صيت مهنته وأضفى عليها صيتا آخر ذاتيا ذا صبغة جمالية .

وعلى هذا الأساس نرى أن الطبقات تتدرج تبعا للفكرة السائدة عن قيمة الخدمات التى تؤديها كل منها .

---

(١) رابليه (١٤٩٤ — ١٥٥٣) من أشهر أدباء فرنسا فى القرن السادس عشر ، وقد عرض آراءه الإنسانية وفلسفته ونظراته فى الأخلاق فى صيغة تهكمية فى مؤلفه الكبير : « حياة جرجنتوا وبتاجرول » . المترجم

### صيت المهنة عن طريق الثروة التي تجلبها :

بعد أن نظرنا في حاجة المجتمع إلى مهنة من المهن ، أو بالأحرى في الخدمات التي يمكن أن تؤديها وبعد أن تبين لنا أن تقدير هذه الخدمات يختلف باختلاف ظروف الحياة الاجتماعية ، وبما يشغل المجتمع من مهام وما يتطلع إلى تحقيقه في عصر من العصور ، يجدر بنا الآن أن نبحث في صيت المهنة الذي يأتي عن طريق الثروة لأن الثروة بطبيعتها شيء يعجب به الناس ويتشوقون إليه ، لما تحققه من استقلال وما تتيحه من وسائل المتعة . فالتاجر الغني له من النفوذ ما ليس للتاجر الصغير الذي يتحایل على المعيشة ، ورجل الصناعة الضخمة يتمتع بصيت أكثر مما يتمتع به الصانع البسيط وصاحب المزارع الشاسعة أكثر من المزارع الصغير ، وقل مثل هذا في المهن الأخرى . وعلى ذلك فالمهنة يرتفع شأنها في نظر الناس بقدر ما تجلب من مرتب ضخيم أو أرباح وفيرة .

ويظهر صيت الثروة في شكل أوضح في الدول التي يتوقف رخاؤها بوجه خاص على الصناعة أو التجارة ، كإنجلترا والولايات المتحدة على حين يتضام هذا الصيت في البلاد التي تسود فيها الزراعة كفرنسا ، وخاصة حين تبعث ظروف الحياة على زيادة الإعجاب بالمهن غير المربحة ، كما كانت الحال في عصر نابليون الأول ، حين كان الناس يتحمسون للانخراط في سلك الجندية ، وكما كانت الحال في عصور الحضارة التي كان للنشاط الحربي فيها

من الأهمية أكثر مما للنشاط الصناعي ، كعصر الإقطاع مثلا ، وبالرغم من اتساع حركة التجارة والصناعة بفرنسا في القرن السابع عشر ، فقد تضائل صيت من أثروا عن طريق التجارة لأن قوة العقائد الدينية وحماسة الإيمان ، أفرغت على رجال الكنيسة سلطة أخلاقية واسعة ، ولأن تواتر الحروب رفع من صيت طبقة النبلاء وهي الطبقة التي كان يقضى عليها منشؤها باصطناع مهنة الحرب . غير أن صيت رجال التجارة كان لا بد أن يزداد في القرن الثامن عشر على أثر الديون التي أخذت تتراكم على طبقة النبلاء ؛ إذ ذلك زادت الأهمية الاجتماعية لرجال المال زيادة أكبر فأصبحت بناتهم محط أنظار النبلاء وأخذ هؤلاء يتسابقون في طلب أيديهن للزواج بعد أن أخذ الفقر ينال من سطوتهم . وفي الوقت نفسه أخذ نفوذ العقيد: الدينية يضعف على أثر الضربات القاصمة التي وجهها إليها فلاسفة القرن الثامن عشر ، كما أخذت تنقض بسبب تقدم العلوم بما أضعف من نفوذ رجال الكنيسة وصيتهم ، فأخذ المال يتجه باطراد إلى أن يكون العامل الرئيسي في التفاضل الاجتماعي .

### صيت المهنة عن طريق الإعجاب بها :

الشعور بالإعجاب الذي يتولد في نفوس الناس تجاه الذين يمارسون مهنا معينة يكون أما نتيجة لما تنسم به من طابع جمالي ، أو لما تتطلبه من صفات عقلية وخلقية ، فالمهن التي ترتبط بالقدررة وتشير الاشمزاز ، كهنة عامل المجارى أو الكناس أو جامع القمامة من

المنازل تعد مهنا منحطة إذا قيست إلى المهن التي لا تسبب تلوث اليدين كأعمال المكاتب مثلا . كذلك الحال في المهن التي تتضمن طاعة عمياء ولا تقيمين فيها روح الابتكار والمبادأة أو استخدام الذكاء، بل تقتصر على مجرد التنفيذ الآلى كمهنة نقل التراب أو مهنة « صبي » البناء . وعلى العكس من ذلك فإننا ننظر نظرة الاجلال والتعظيم للمهن التي تتضمن إدارة ومبادأة وذكاء وعلى الأخص حين تنسم السلطة على الآخرين بالمظهر الحسن والإشارات الأصلية كما هي الحال في ضباط البحرية أو ضباط الجيش أو السفراء أو حكام المدن .

وبصرف النظر عن مظهر السلط الذي يتمثل في بعض المهن كوظائف الجيش أو القضاء فهناك الذكاء أو الصفات الفاضلة التي تتطلبها المهنة فهنة الجنديّة تتطلب الشجاعة ومهنة المهندس أو الأستاذ أو الطبيب تحتاج إلى العلم ومهنة القضاء تتطلب النزاهة ومعرفة القانون كما أن وظيفة الدبلوماسى تتطلب الخدق ودقة الحس والاهتمام بمصالح الوطن . وفي كل زمان ومكان تضاف المعرفة والمواهب والصفات العقلية والخلقية والتربية العالية على أصحابها الصيت بدرجات متفاوتة . ويقول لنا « جورج هاردى Hardy » ، في هذا الصدد أن الزوج في أفريقيا يميزون بين « الرجال الممتازين » والرجال العاديين ، وهو نفس التمييز الذى كان قائما عند الرومان بين كلمتي honestiores ( الطيبون ) و humiliores ( الوضعاء )

( ٤٥ )

وبين كلمتي ( النبيل ) noble و ( الخسيس ) vilain في العصور الوسطى وهو تمييز يقوم على اختلاف الهندام والتعبير ونوع العواطف ودرجة الذكاء .

ثم أن المعارف الخاصة والمهارة الفنية في المهن التي تتطلب قدرات معينة أو براعة لها تأثير مماثل في نفوس الناس . فعمال السكره براء يعتبرون أنفسهم أعلى من الميكانيكيين وهؤلاء ينظرون إلى السواقين ومساعدى السائقين على أنهم أخط منهم بكثير .

وبالإجمال فإن المهن التي تقتضى كثيرا من انكار الذات أو التي تنمى في النفس الفضائل النبيلة والاهتمام بالصالح العام واسداء الخدمات للآخرين والأمانة ينظر إليها بوجه عام على أنها أعلى من غيرها وخاصة إذا قورنت بالمهن التي تنمى في النفس حب الكسب وروح الخبث والتدبير الذي لا يعرف شفقة ولا يخضع إلا للبواعث المغرضة . ولهذا السبب كانت التجارة تعتبر في غالب الأحيان مهنة لا تليق بالنبل ، وذلك في العصور التي كان يدعى فيها أفراد هذه الطبقة لاحتلال أعلى المراكز في الدولة . وفي روما القديمة كانت التجارة محرمة على أعضاء مجلس الشيوخ ( السناتو ) كما كانت محظورة في فرنسا القديمة على طبقة النبلاء وكان العرف يسمح للرجل النبيل بأن يستغل مزارعه وأراضيه ، ولكن لا يسمح له بأن يثرى على طريق المضاربة في سوق المواشى . وقد جرد

نبيل نورماندى من رتبته فى القرن السادس عشر لأنه كون ثروة عن طريق تغذية الأبقار وتسمينها ثم بيعها . ولم يكن استهجان هذه الأعمال راجعا إلى طبيعة العمل نفسها بل إلى ما يولده من روح الجشع التى من شأنها أن تحول طبقة النبلاء عن فضائلها التقليدية التى اكتسبتها كما أكسبت مملكة فرنسا فى ذلك الوقت تلك القوة التى كانت تزهو بها .

وهناك شكل آخر من أشكال الصيت ذو طبيعة خاصة ونعنى به ذلك الصيت الذى كانت تتمتع به طبقة الكهنوت فى جميع الأقطار يوم كان للدين مكان خرموق . ومن أمثلة هذا الصيت ما تتمتع به طائفة البراهمة فى الهند . إذ تقول قوانين « مانو Manou » إن البرهمى البالغ من العمر عشر سنوات والمحارب « كشاتريا kshatriya » الذى شارف عمره المائة سنة يجب النظر إليهما على أنهما والد وولد على أن يكون الوالد من بين الاثنين هو البرهمى وأن تقدم له فروض الاحترام على هذا الاعتبار وما ينطبق على رجال الدين فى نظام الطوائف ينطبق عليهم كذلك فى نظام الطبقات . وأمامنا مثال لذلك فى السلطة التى كان يتمتع بها رجال الدين فى أوروبا خلال العصور الوسطى . ومن ايسور فى هذه الحالة أن يصبح الصيت المنبعث عن السلطة الروحية عاملا للاستحواذ على الثروة والقوة .

فالسلطة والصيت يترتب عليهما إذن إرساء قواعد نظام منالى

للتقدير والاحترام في المجتمع وقد يرتبط هذا النظام أحيانا بالقوة أو يكون السبب في وجودها أحيانا أخرى : لكنه على كل حال نظام يعبر عن التفوق الذي يقوم على العقيدة والرأى العام والعاطفة أى أنه نظام يعبر عن وجهة نظر ذاتية . وهذا التفوق ذو الطابع الذاتى يوجد جنبا إلى جنب مع تفوق من نوع آخر ونعنى به ذلك التفوق الموضوعى الذى تتيحه الثروة والقوة الغاشمة بصورة واقعية وفعلية لاشأن لها بالسلطة أو الصيد ولا بالتقدير الذى يتبعهما . وهذا النوع من القوة — القوة الحقيقية للثروة والعدد والسلاح — هو الذى يجب أن نبخه الآن .

### قوة السلاح :

ربما يكون أوضح مثال يقدمه لنا التاريخ عن الطبقة التى تدين بسيطرتها إلى قوتها الحربية طبقة الإقطاعيين — فقد فرض أسياذ الإقطاع سيطرتهم فى الواقع عن طريق حمايتهم للطبقات المضطهدة أو التى كانت مهددة بعدو خارجى أو بعسف إدارة طاغية . إذا أنه عندما سادت الفوضى فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بسبب الغزوات المتوالية التى كان يشنها عليها البرابرة استطاع كبار الملاك الزراعيين أن يسلحوا أتباعهم وعبيدهم بحيث أصبحوا فى حالة تمسكهم من الصمود أمام العصابات المسلحة التى كانت تنهب المنازل وتفتك بالقرى . كما استطاعوا أن يحموا أتباعهم من إرهاب الضرائب أو عسف حكام الأقاليم . وفى هذا الوقت أى فى العصور

الوسطى حين كانت غزوات النورمانديين والمجر تتوالى على أوروبا حاملة الخراب والدمار كان من الطبيعي أن يلجأ سكان الأقاليم إلى وضع أنفسهم في حماية فارس من زعماء الإقطاع وأن يحتتموا خلف أسوار قلعتهم الحصينة . وقد وصفت إحدى الملاحم الفرنسية في العصور الوسطى المسماة « أغاني البطولة Chansons de geste » ، هذه الحالة في تلك العبارة « الناس بدون سيد ( أو أمير إقطاع ) لا يقر لهم قرار ، وهكذا أصبحت قوة السلاح الغاشمة التي كانت في الأصل تلعب دور الحماية مصدرا للسلطة والصيت .

#### قوة المال :

وتأتى قوة المال بعد قوة السلاح . وإذا كانت القوة الغاشمة هي المظهر الوحيد للسيطرة المجدية في أزمنة ساد فيها الاضطراب كما كانت الحال في عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ومطلع العصر الوسيط فإن الثروة قد أصبحت فيما بعد وسيلة هذه القوة وذلك في العصور التي ساد فيها النظام والاستقرار الضروريين للعمل . إذ عندما يجمع الرأي العم على احترام الملكية ويتأكد لمن يملكون الحق في الاستمتاع بأموالهم ، يجد أن الحاجة إلى المال تدفع الدولة أو تدفع الزعماء الذين يسيطرون على زمام السلطة الزمنية إلى إرضاء مطالب الطبقات الغنية ورغباتها . لذلك لم يتردد لويس الرابع عشر في أن يضع حدائق فرساي تحت طلب

(٤٩)

رجل المال « صمويل برنار ، وذلك عندما أراد أن يعقد معه قرضا يسد به مصروفات الدولة الباهظة .

وتكون الثروة كذلك مصدرا للقوة ، إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى ، فهي إذ ترفع عن كاهل الذين يملكونها عبء السعى من أجل القوت اليومي ، وإذ تيسر علاقاتهم بمن يستطيعون إسداء الخدمات فانها تساعد في الوقت نفسه على إنماء الذكاء ودقة الحس لدى أصحابها ، إذ تتيح لهم الاختلاط بالناهين من الناس ذوى الثقافة والتربية الرفيعة والشخصيات التي تمثل مراكز عليا أكسبتها خبرة وفيرة ، ومن جهة أخرى فان الثروة تمكن صاحبها من السفر والتنقل ، وفي ذلك ما يزيد اطلاعه وخبرته ويجعله يتفوق في هذه الناحية على من يضطرون لكسب العيش إلى القيام بأعمال تافهة . وهي لهذا الاعتبار بالذات تجعل من يحسنون استخدامها قادرين على أن يصلوا إلى أعلى المناصب وأن يحتلوها عن جدارة وأن يصبحوا مستشارين سياسيين لرجال الحكم ، وأن يدافعوا عن حقوق مواطنهم إذا اختارهم هؤلاء لهذه المهمة من هذا نرى أن الطبقات الغنية والمتقنة تتمتع بقوة حقيقية في الدولة .

وقد حدث في بعض العهود ، وخاصة في تلك التي يكن لم فيها جيوش نظامية كما كانت الحال في العصور الوسطى — حدث أن مكنت الثروة لطبقة كانت من قبل قليلة النفوذ بل محتقرة من أن

تظفر بأسلحة، وأن تنظم نفسها في جيش إقليمي (ميليشيا) أو تكون  
بواسطة المال جيشا من الجنود المرتزقة . وعلى هذا النحو استطاع  
عامة الناس أن يصمدوا أمام النبلاء، وأن ينتزعوا منهم حقوقا هامة،  
واستطاع سكان حى «السيتى» فى لندن أن يقاوموا شارل الأول  
ويمدنا التاريخ بمثال آخر من هذا النوع، حدث فى الجمهوريات  
الاطالقية فى العصور الوسطى؛ فقد مهر سكان هذه الجمهوريات فى  
الفنون الصناعيه، وخذقوا فن صناعة الصلب والبرونز والحديد  
والحرير والزجاج الخ... ثم أثروا من طريق بيعهم مقادير كبيرة  
من السلع الكالية، هذا فى الوقت الذى أصبح فيه تجار جنوا وبيزا  
وفلورنسا والبندقية سادة البحر الأبيض المتوسط، وأخذوا يزودن  
أوربا بمنتجات الشرق، كما أخذ رجال المصارف فى لومبارديا  
يوسعون معاملاتهم المالية مع البلاد الأجنبية . إذ ذاك استحوذت  
هذه الطبقات التى ارتفعت عن طريق التجارة على الحكم وأبعدت  
النبلاء فى عدد من المدن . وفى الأراضى المنخفضة ( هولندا )  
وكذلك فى مدن التحالف التجارى ( فى العصور الوسطى ) وهى  
برمن ولوبك وهامبورج، وأيضا فى إنجلترا حدث تطور من نفس  
النوع، إذ ساعد التقدم الصناعى على تأسيس الأنظمة الحرة وذلك  
بخلق طبقة جديدة من التجار الأغنياء .

قوة العدد :

والعدد مصدر ثالث من مصادر القوة والنفوذ ، متى توافرت شروط خاصة ، والواقع أن العدد في ذاته ليس مصدر القوة وكم في التاريخ من جيوش قليلة غلبت جيوشا كبيرة لأنها أحسن تسليحا وتنظما ، ولأنها تفضلها في القيادة والتدريب والشجاعة . بل يرينا التاريخ كيف كان بعض القادة يضاعفون من قوة جيشهم بتسريح جزء من جنودهم أو يفعلون كما فعل « أوجست » في موقعة « اكتيوم » حين أراد أن يعطى لأسطوله فرصة التحرك في خفة وسرعة فأمر بتدمير بعض القطع التي كانت تعوق التجانس بين وحدات الأسطول — فالعدد الكبير لا يتفوق على العدد الصغير إلا بالتنظيم ورجحان مالهديه من وسائل . وهناك أسباب كثيرة في التاريخ جعلت في الإمكان تنظيم طبقات كثيرة العدد وإنجاح مشروعاتها . ومن هذه الأسباب الاندماج الذي ساعد عليه التقدم ائشامل للحضارة الصناعية . والحاجة إلى هذه المجموعات الكبيرة في الناحية الحربية وكذلك في الناحية الاقتصادية . ومنها نشأة تنظيمات سياسية عملت على ازدهار هذه الطبقات الشعبية .

على هذا النحو أصبحت قوة الطبقة العاملة كبيرة جدا في الديموقراطيات الحديثة، وفي فرنسا على وجه الخصوص، وكان ذلك على أثر إنشاء المصانع الكبيرة التي تضم ألوفا من العمال يستطيعون

التسامح والتدارس والتفاهم وتكوين اتحادات ونقابات قوية حتى أصبح الاتحاد والتضامن بين فئات طبقة العمال عنصراً أساسياً من عناصر قوتها .

وفي الوقت نفسه فإن أهمية الدور الذي تلعبه المصانع والسكك الحديدية في زمن الحرب ، قد أدى إلى النتيجة نفسها، وهي ازدياد قوة العمال و قدزاد من هذه القوة في زمن السلم أهمية المنتجات الصناعية في تزويد الدولة بحاجاتها المادية .

و حين شعرت طبقة العمال . بأهمية الخدمات التي تؤديها للمجتمع بأسره سواء في زمن الحرب أو في زمن السلم، وقدرت الخطر الذي توقعه الدولة فيه إذ الجأت إلى الإضرابات العامة، أصبحت تؤثر تأثيراً كبيراً في قرارات الوزراء وفرضت نقابات العمال وكذلك نقابات رؤساء الأعمال أرادتها على الدولة بسبب قوتها الاقتصادية . وكان نفوذها في الهيئات التشريعية نتيجة لهذه القوة في الميدان الاجتماعي .

وأخيراً فإن تقرير مبدأ الاقتراع العام الذي طالما طالبت به الطبقات الكثيرة العدد ، قد أدى إلى نفس النتيجة إذ تمكنت القوة العددية لطبقة العمال عن طريق « الاتحاد العام للعمل » من اكتساب أصوات الهيئة التشريعية إلى جانبها ، وإصدار التشريعات التي تناسبها فناهضت بذلك النفوذ البرلماني والتشريعي لسكبار رجال الصناعة وأصحاب البنوك .

قوة الفكر :

وهناك شكل آخر من أشكال النفوذ يتمثل في الفكر ووسيلة التعبير عن الأفكار ، هي الكتابات والكتب والنشرات والجرائد ، أو الخطب والمواعظ والمحاضرات والندوات الخ . . . ويستطيع الفلاسفة والمؤرخون والكتاب والوعاظ والصحفيون أن يخلقوا أو أن يدعوا بعض التيارات الفكرية والعقائد ، وهي في ذاتها قوة يتفاوت حظها من التأثير تبعاً للظروف ومجريات الحوادث ولهذا السبب قيل إن الأفكار تقود العالم . لكنه قول لا يصدق إلا في تحفظ ، لأننا نستطيع كذلك أن نقول مع «مالبرانش» ، إن «الفكرة المحضة لا تحرك حتى جناح بعوضة . والواقع أن الأفكار لا تصبح ذات قوة إلا إذا تناغمت مع عواطف الناس وحاجاتهم وما يتطلعون إليه في عصر معين فإن لم تكن كذلك كانت عديمة القوة ومع ذلك يجب أن نعترف بأن الأفكار إذا كانت صادقة وخيرة أتيج لها أن تديع وأن تتغلغل شيئاً فشيئاً في العقول ، وخاصة متى برئت من أن يناقض بعضها بعضاً ولقيت من الواقع ما يؤيدها على الدوام . وعلى العكس من ذلك فإن الأفكار الخاطئة مهما كان نصيبها من الذبوع فترة من الزمن فإنها تنتهي حتماً بالتناقض فيما بينها

(١) مالبرانش (١٦٣٨ — ١٧١٥) فيلسوف فرنسي من فلاسفة القرن السابع عشر اهتم بمناقشة علاقة الروح بالجسد وكانت فلسفته قائمة على النفاؤل ونظرياته الخلقية على فكرة النظام ، أشهر مؤلفاته : « البحث عن الحقيقة » (الترجم) . Recherche de la Verité

ولا تلبث الحوادث أن تكذبها إن عاجلاً أو آجلاً . وهكذا فإن ما يتضمن التناقض لا يلبث أن يتلاشى أمام التفكير وأن ما يتناقض مع الواقع لا يلبث أن تهدمه التجربة . وبناء على هـ — إذا تستطيع الطبقات المثقفة أن تغير من اتجاهات الرأي العام أو تخلق تيارات جديدة من الشعور والفكر .

وقد أدت القوة الحقيقية للرأي العام وما يقوم عليه من أفكار وعواطف ، أدت إلى توجيه الحكومات إلى الاهتمام به ، وحفزها إلى استخدام جميع الوسائل التي تملكها للتأثير في العقول . ففي فرنسا اهتم ريشيليو بالتأثير في الرأي العام حين منح « ثيوفراست رينودو Théophraste Renaudot امتياز إنشاء جريدة « الجازيت La gazette » . وألغى نابليون الأول كل الجرائد ولم يترك إلا واحدة تنطق بلسانه وتؤيد سياسته وهي « ناصح الأمبراطورية moniteur de l'Empire » . وفي عصور مختلفة وخصوصاً في أوقات الحروب أو الثورات كانت تفرض رقابة تتفاوت شدتها على المطبوعات بجميع أنواعها ، وعلى الصحف اليومية بصفة خاصة . وفي نفس الوقت اتسع نطاق الدعاية الرسمية بطريق الصحافة والإذاعة ، وكذلك بطريق السينما أحياناً . وبإغداق المنح على بعض الصحف من الأموال السرية ، ومنح النياشين والألقاب للصحفيين الموالين ، تهدف الحكومات الديمقراطية — حتى أشدها دعوة

إلى الحرية — إلى نفس ما تهدف إليه الحكومات المستبدة فلا تأذن إلا بصحافة رسمية تعبر عن سياسة الزعماء الذين في كراسى الحكم .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن التأثير الروحي للكتاب ، لا يخضع لقيود الحكومة وتوجيهاتها فحسب ، بل يخضع أيضا للناشرين ومديرى الصحف ، وقد ترتب على اصطباغ الأدب والصحافة بالصبغة التجارية نفس النتائج الضارة التى ترتبت على فرض الرقابة ، وأصبح بذلك تأثير الطبقات ذات الثقافة الممتازة والتي تستطيع أن ترتفع بالمستوى العقلى والخلقى للدولة ضعيفاً أو كأنه معدوم . ولكن مما يخفف وقع هذا الضغط نوعاً ما ، كثرة المطبوعات وتنوعها مما أتاح لجميع الآراء أن تفصح عن نفسها ، وكذلك وجود بعض الناشرين ذوى الرأى المستنير الذين يهتمون بالصالح العام ويستقلون فى تصرفاتهم عن التوجيه الحكومى .

#### توقف النفوذ على حسن استعمال القوة :

إن جميع أشكال القوة التى أحصيناها ، يتولد عنها نوع من النفوذ والهيبه كما أن النفوذ بجميع أشكاله يتولد عنه القوة . ولكن ذلك النفوذ الراجع إلى القوة قد يتعرض للخطر أو التجريح ، تبعاً للطريقة التى تستخدم بها هذه القوة . فالسلوك السيئ أو الأعمال الاجتماعية الضارة ، إذا صدرت ممن يقبضون بيدهم على القوة العسكرية أو الثروة ، أو القوة العددية ، أو المواهب الأدبية والخطابية ،

أو وسائل نشر الأفكار ، فإنها تباعد بينهم وبين عطف الرأى العام وتقلل من الإعجاب بهم ومن التقدير أو الاحترام الذى يشعر به الناس عادة إزاء الطبقات الممتازة .

على هذا النحو ، فقدت طبقة النبلاء نفوذها الأدبى وما تتمتع به من صيت ، بعد أن كانت موضع الإعجاب والاحترام يوم كانت تقوم بأعمالها العسكرية والإدارية على وجه مشرف يدعوها إلى الفخار ذلك أن الامتيازات التى كانت تتمتع بها غدت فى يوم ما لا تتناسب مع الخدمات التافهة التى اقتصر أفراد هذه الطبقة على تأديتها للدولة ، وأنهم انصرفوا إلى نوع من النشاط المثير أوقع الدولة فى الفوضى ، والحكومة فى اضطراب . وقل مثل هذا الأمر فى الفئات العليا من طبقة البورجوازية وهى الفئات التى كانت تسيطر على الصناعة والبنوك ، فقد كانت هذه الفئات موضع التقدير لنشاطها وروحها الوثابة التى كانت تدفعها للقيام بالمشروعات وابتكاراتها المشمرة . ولكن هذا التقدير انقلب إلى نقمة حينما انصرفت إلى تحقيق الكسب لنفسها وضعف اهتمامها بواجباتها نحو الطبقات الأخرى ونحو الدولة .

ويمكن القول إلى حد ما أن أسبابا من نفس النوع ، هى التى جعلت الطبقة العاملة لا نفوذ لها حتى اليوم بالرغم من أنها أصبحت طبقة قوية بفضل اتحادها وأهميتها العددية ، وحاجة المجتمع إلى خدماتها . وذلك أن الاضرابات المتكررة والتى لا مبرر لها ، والتى تحدث لأسباب سياسية أكثر مما تحدث لحاجات حقيقية . كان من شأنها أن تضعف الثقة بهذه الطبقة . وهذه فى الواقع ظاهرة لها

دالاتها . ففي الوقت الذي بلغت فيه قوة الطبقة العاملة أقصاها ، كانت سمعتها الأدبية تهبط إلى الحضيض . ولترجع قليلا إلى الوراء لنرى ماذا حدث أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ . لقد كان الزراع وأصحاب المهن الحرة يضحون بأرواحهم في جبهة القتال وكانوا ينظرون بطبيعة الحال بعين ساخطة إلى العمال الذين كانوا يربحون ١٠٠ فرنك في اليوم ، وهو أجر ضخم في ذلك الوقت ، من صناعة القذائف في المصانع ، دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر . ومع هذا فقد دأب العمال منذ ذلك الحين على القيام بحركات الإضراب في المصانع التي تعمل للدفاع الوطني ، وبخاصة في مصانع الطيران بينما كانت ألمانيا ذات البأس الشديد تستعد لحرب جديدة . يمثل هذه التصرفات كانت طبقة العمال تبرر في كثير من الأحيان الكلمة التي وصفها بها « رينان Renan » ، وهي أنها أكثر الطبقات سعيا وراء المصلحة الذاتية ؛ فكثيرا ما ظهرت هذه الطبقة غفلا من الوطنية ، عطلا من الوازع الخلق ، تتأهب على الدوام للقيام بأعمال العنف بتأثير من يدفعونها من زعمائها ، وحين يتأكد لها إفلاتها من العقاب . وقد كان احتلال المصانع ، واعتقال المهندسين والرؤساء ، وحجزهم ، والاعتداء على الزملاء الذين يرفضون مشاركتهم في الإضراب ، كانت كل هذه التصرفات سببا في سحق الرأي العام عليهم . وعلى العكس من ذلك فقد ، استطاعت طبقة العمال ذاتها أن تسمو في نظر الرأي العام ، حينما هداها التعقل إلى رفض الإضراب العام الذي كان يحرضها عليه الصائدون في الماء العكر ، والذي كان

يمكن أن يتمخض عن نتائج غاية في الخطورة، بسبب ما كانت تعانيه البلاد من الخراب من جراء الحرب والاحتلال الألماني .

وهكذا يمكن القول ، بأن أى طبقة تستطيع أن تسيء إلى سمعتها بتصرفاتها السيئة ، أو إهمالها أو جشعها ، وتستطيع على العكس أن تضاعف ما تنعم به من صيت بالخدمات التي تؤديها ، وبما تظهره في تصرفاتها من إخلاص للصالح العام ، وبالأعتدال الذي تراعيه عند ممارستها لقوتها .

ومن جهة أخرى ، فإن النفوذ الذي تستمده طبقة من أحد العوامل السابق ذكرها وهي القوة العسكرية أو الثروة أو العقيدة الدينية الخ . . يمكن أن يحتجب أو أن يضعف نتيجة لنفوذ أكبر وأظهر ، تستمده طبقات أخرى من مصدر آخر . وللتمثيل لذلك نقول :

إنه منذ القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، لم تتوقف قوة البورجوازية عن الصعود المستمر جنبا إلى جنب مع ازدياد السلطة الملكية ، فقد كان أهم وزراء شارل السابع من أمثال الأخوة « بيرو Bureau ، و « جاك كبير ، Jacques Coeur من الشعب . وأحاط لويس الحادى عشر نفسه طوعا بأفراد من الطبقات الصغيرة نذكر منهم « أوليفيه الغزال Olivier le Daim ، حلاقه الذى أعدم شتقا في عهد شارل الثامن . وكان النظار les intendants الذين أوجدهم ريشيليو للحد من سلطة النبلاء يعينون في معظم الحالات من بين أفراد الشعب وكذلك

كانت حال المفوضين المساعدين الذين كانوا بالنسبة للنظار كمساعدي الحكام بالنسبة لحكام المدن . وفي عهد لويس الرابع عشر ، لم يكن كولبير الوزير الذي اشتهر بأعماله العظيمة من طبقة النبلاء ، ومع ذلك فقد ظلت البورجوازية بالرغم من هذه الميزات ، لا تتمتع بنفوذ بين أفراد الشعب ، لأن رجال الكنيسة والنبلاء كانوا ما يزالون يحتفظون بنفوذهم . وقد كان احتجاج نفوذ البورجوازية وراء طغيان هاتين الطبقتين عليها هو السبب الذي دفع « سرفان servan » إلى القول في مؤلفه بعنوان « دراسة لتاريخ الثورات »<sup>(١)</sup> بأن الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ قامت بها البورجوازية للنيل من رجال الكنيسة والنبلاء وكان سببها الرئيسي هو الغرور والحسد .

وبالمثل فقد حدث على أثر ازدهار الفلسفة والعلم ، بعد ظهور آراء ديكارت ونيوتن ، أن أصبح المفكرون والكتاب يتمتعون بصيت كبير في القرن الثامن عشر ، بما أضعف من صيت رجال الكنيسة الذين ظلوا أحقابا طويلة أكثر الطبقات علما وثقافة . وقل مثل هذا في رجال القضاء الذين كان يطلق عليهم اسم ( نبلاء الرداء ) فقد أصبح لهم من الخطر ما أضعف نفوذ النبلاء العسكريين . وقد حدث بعد ذلك بقرن واحد أن أصبح كبار رجال الصناعة

(٦٠)

ورجال البنوك، يتمتعون بصيت لم يعرفوه من قبل بسبب تقدم التجارة والصناعة ونظام الائتمان. وفي زمن الحروب التي قام بها نابليون، كان للعسكريين صيت أعظم من صيت الكتاب، ثم انقلب الحال إلى عكس ذلك في عهد السلم، تحت حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس فيليب.

وبجمل القول أن الخدمات التي تؤديها كل طبقة للمجتمع ودرجة اعتراف الرأي العام بقيمة هذه الخدمات هي التي تمنح الصيت والنفوذ لهذه الطبقة أو تلك. أما الثروة أو الثقافة أو القوة العسكرية فكلها عوامل للنفوذ تقدر من ناحية منفعتها الاجتماعية إلى جانب الإعجاب بها والتطلع إليها لذاتها.

## الفصل الثاني

### تكوين الطبقات

يحدث تمايز الطبقات داخل نطاق الجماعات المختلفة، كالقبيلة أو المدينة أو الدولة، تحت تأثير ظروف متباينة، ولأسباب جد مختلفة .

ويمكن القول بوجه عام، أن تقسيم العمل الاجتماعي، وهو ظاهرة عامة بالنسبة لجميع المجتمعات، له نصيب كبير في هذا التمايز الطبقي: فتنوع الحاجات الاجتماعية، وتوزيع الأعمال الضرورية، لإرضاء هذه الحاجات توزيعاً تلقائياً أو مفروضاً، يؤدي بالضرورة إلى تمايز بين الأفراد بحسب اختلاف الأعمال. ولا شك أن العمل لتوفير الغذاء، وبناء المساكن، وصنع الأسلحة والأواني وأدوات العمل، ونسج الملابس، كل هذه الحرف المختلفة تكفي لإيجاد التفرقة بين الزراعة والصناع، وهذا إذا قصرنا النظر على المجتمعات التي لم تتقدم في الحضارة إلا قليلاً. أما حين يتعقد نظام تقسيم العمل فإنه يؤدي إلى ازدياد عمليات التبادل التجاري ثم يؤدي بعد ذلك إلى نظام الدفع على آجال: وحينئذ تنشأ فئات اجتماعية جديدة فبجانب الزراعة والصيد والحدادين والبنائين وصانعي الفخار، يظهر التجار ورجال البنوك الخ... وهذه الفئات المختلفة لا تلبث

بدورها أن تكون طبقات على أساس التشابه أو التضاد، في نوع حياتها ومصادر ثروتها ودرجة ثقافتها وتعليمها .

ويمكن القول بوجه عام أن تنوع الوظائف داخل نطاق المجتمع، يهيمن على تكوين الطبقات : إذ تقوم الطبقات العاملة بإرضاء الحاجة الأولية التي تتصل بتوفير أسباب المعيشة المادية، وتقوم الطبقة العسكرية على الوفاء بحاجة الدفاع ضد العدو الخارجي، وتستجيب الطبقات الحاكمة أو الإدارية للحاجة إلى التنسيق بين الرغبات المختلفة، وإيجاد التوازن بين المصالح المتباينة، بحيث يستتب النظام والسلام في الداخل . وعلى هذا الأساس يكون تقسيم المجتمع إلى طبقات نتيجة للضرورات الحيوية . أى أن هذا التقسيم ينبع من إرادة الحياة عند كل جماعة .

ثم تأتي الظروف الخاصة بعد ذلك لتنسج أشكالا مختلفة حول هذه القاعدة الأساسية التي تشترك فيها جميع المجتمعات . ولذلك فإن التاريخ يقدم لنا بالنسبة لتكوين الطبقات قائمة حافلة تصور لنا إلى أى حد اختلفت الطبقات وتباينت من شعب إلى شعب ومن عصر إلى عصر .

#### علاقات التبعية :

وأول صيغة من صيغ تكوين الطبقات تنحصر في نشأة علاقات التبعية بين رجل وآخر، أو بين أسرة وأخرى . ونحن نجد

( ٦٣ )

مثالاً لتلك التبعية في العصور القديمة حيث كان التمييز قائماً في روما بين الأشراف *les patriciens* و *les clients* ومواليهم . فقد كان الأشراف يكونون أسراً تتجمع في وحدة اجتماعية تحت زعيم أعلى هو «عاهل الأسرة *Pater Familias*» ، وكان يعد بالنسبة للموالى كصاحب العمل *le patron* بالنسبة للعمال اليوم . وفي الواقع كانت تتركز في يده جميع السلطات : فهو الكاهن والقاضي والمشرع والقائد العسكري في وقت الحرب ، وهو الذى يدير أملاك المجموعة العائلية أو الأسرة الكبيرة (*gens*) كما أن له حق التصرف المطلق في مصير أفراد الجماعة ، بحيث يمنح الحياة أو يحكم بالموت ، كما يشاء على أى عضو من أعضائها ، بما فيهم الموالى والعبيد ، وهو الذى يتزعم مراسم وطقوس الديانة العائلية و يقدم القرابين أمام قبر الأسلاف ، وهو الذى يقدم فى — حالة النفي ، وفى الميعاد الذى يحدده له حكام المدينة — رجال الأسرة القادرين على حمل السلاح (*Sua manus*) .

والشريف سواء أكان ينتمى إلى الفرع الأكبر أو إلى الفروع الصغيرة فى الأسرة ، يصل دائماً إلى مركز « العاهل أو الزعيم » ، ويعد حينئذٍ جداً مقدساً تبتهل إليه الأسرة فى صلواتها . وفى حالة انقراض الفرع الأكبر يصبح فى مقدور عضو من فرع صغير أن يكون رئيساً للأسرة أو زعيماً للمجموعة العائلية ، ويحق له بمقتضى ذلك أن يدير أملاك الأسرة الجماعية . أما فيما يتصل « بالمولى » ، فالأمر يختلف كل الاختلاف فهو مهمماصعد فى أصول نسبه فلن يجد بين أسلافه غير « موالى » ،

أو « عبيد » . وله أن يزرع أراضى الأسرة بوصفه وكيلادون أن يكون له أى حق للملكية عليها . « وينص القانون الرومانى على أن المولى يجب أن يدفع مهرا لابنته رئيسه ، ويجب أن يسدد إليه ما يفرض عليه من غرامة ، كما يجب أن يقدم فديته ، ويسهم فى نفقات زعمائه ، أما من الناحية الدينية فليس لطبقة الموالى عبادة خاصة بهم ، فهم يحضرون الحفلات الدينية الخاصة بعبادة الأسرة التى ينتمون إليها ، دون أن يكون لهم الحق فى رئاسة أحدها . وإذا تلاشت الأسرة فإن الموالى — كما يقول فوستيل دى كولانج<sup>(١)</sup> « Fustel de coulange » لا يستطيعون الاستمرار فى إقامة شعائرها ، بل يتفارقون ويلتحقون بأسر أخرى ، لأن الديانة العائلية ليست تراثهم ، وهى لا تتصل بدمهم ، أى أنها لم تنحدر إليهم من أسلافهم . لقد كانوا يدينون بها عن طريق الاستعارة وينعمون فى ظلها ، ولكنهم ليسوا أصحابها . »

ونستخلص من ذلك أن طبقة الموالى لا يمكن تعريفها إلا عن طريق علاقات التبعية التى تربطها بطبقة الأشراف . والروابط التى تربط الموالى بالأشراف تمثل تبعية أسرة لأسرة أكثر مما تمثل

---

(١) مؤرخ فرنسى ( ١٨٣٠ — ١٨٨٩ ) . أشهر كتبه كتاب — المدينة القديمة La Cité Antique — الذى ترجم إلى العربية ، وكتاب — تاريخ النظم السياسية فى فرنسا القديمة — اشتهر بتحريره المنهج السليم والحقيقة فى كتاباته .  
( المترجم )

تبعية رجل لرجل ، لأن « عاهل الأسرة » ليس له من سلطان عليهم إلا بوصفه زعيما للأسرة الكبيرة .

ولكن الأمر يختلف عن ذلك بين الأسياد والاطلقاء . فالسيد الذى يعتق عبده يظل يحتفظ ببعض الحقوق عليه ، ويظل العبد طوع أمره « لأداء بعض الخدمات التى يحدد نطاقها السيد وحده » . وللسيد حق العدالة على العبد : فهو يستطيع أن يعيده إلى الرق لو اتهمه بالجنود . وهو كالمولى فى النظام السابق يظل مرتبطا بالأسرة ويحمل اسمها . والفرق بين النظامين أن لقب المولى ينتقل من الأب إلى الابن ، على حين أن حالة المتحرر ليست قابلة للتوريث بل تتلاشى فى الجيل الثانى أو الثالث على الأكثر .

وفى عهد الأسرة المروفنجية<sup>(١)</sup> ، تكونت كذلك طبقات وفقا لنظام التبعية بين رجل ورجل ، ولم تكن هذه الطبقات رواسب لأنظمة التبعية القديمة بين السيد والعبد أو بين المتحرر ورئيسه فحسب ، بل نشأت أيضا على أساس التبعية الإرادية من جانب أحد المحاربين لزعيم يختاره اختيارا حرا ( comitatus ) ثم حل محل التمييز القديم بين الأحرار من جهة والمتحررين والعبيد من جهة أخرى تمييز آخر أساسه رابطة التعاقد وهذا النوع من العلاقات

---

(١) نسبة إلى مروفيه Mérovee وهى أول أسرة مالكة توت الحكم فى فرنسا فى القرن الخامس الميلادى ؛  
( المترجم )

هو الذى ساد بعد ذلك فى نظام الإقطاع وربط بين صاحب الإقطاع  
 suzerain وتابعه vassal .

ومن هنا يمكن القول أنه ساد فى الأزمنة القديمة التميز بين  
 مجموعتين كبيرتين بمجموعة التابعين ، وتشمل أنصاف الأحرار  
 « lite » والمزارعين colons وعبيد الأرض والمتحررين والعبيد  
 والأرقاء ؛ ومجموعة الرجال الأحرار ( وتشمل ملاك الأراضى  
 المستقلين والأحرار المتحالفين مع الملك والأحرار التابعين لأحرار  
 آخرين ) .

وتتضح الحقيقة الاجتماعية لهذه الطبقات من الأهمية التى  
 يعطيها القانون لعدم التكافؤ فى الزواج . فجميع التشريعات عند  
 الشعوب المتبربرة فى مطلع القرون الوسطى كما يقول « فوستيل  
 دى كولانج » تستنكر الزواج بين أفراد من طبقات مختلفة . وهى  
 على وجه العموم تفرض على الأولاد الذين يولدون من زواج  
 مختلط أن ينزلوا إلى الطبقة الأقل التى ينتمى إليها أحد الوالدين  
 فنلا إذا تزوج متحرر ( tabularius ) من امرأة من الرقيق  
 فإن أولاده يعتبرون أرقاء . وإذا تزوج من امرأة من طبقة  
 الأحرار ( ingenua ) فإن أولاده يعتبرون فى نفس حالته .  
 وإذا كان الوالد حراً والام متحررة فإن أولادهما يرثون حالة  
 الأم . وأكثر من هذا فإن المتحرر الذى يتزوج بإحدى نساء  
 الرقيق قد ينزل هو نفسه إلى مرتبة العبيد .

تبعية شعب إلى شعب :

وقد حدث في ظروف تاريخية أخرى أن تكونت الطبقات على أساس علاقة التبعية بين شعب وآخر. وكان هذا نتيجة طبيعية للغزو. فالفاتحون المنتصرون يكونون الطبقة الممتازة على حين يؤلف المغلوبون الطبقة الدنيا. ويذكر لنا سبنسر Spencer كثيرًا من الأمثلة على أثر الغزو في تعيين المراتب الاجتماعية. ففي جزائر «سندوتش»، وجد بين حكام الجزر المختلفة كثيرون ممن كان أجدادهم ملوكًا في الوقت الذي نزل فيه الرحالة «كوك Cook»، في هذه الجزائر ولكنهم انخفضوا إلى المرتبة الثانية في الوقت الذي فتح فيه القائد «تامهاميلا Taméhaméla»، هذه الجزر. وفي بيرو القديمة عند ما جمعت قبائل الإنكا Incas عدة ممالك صغيرة تحت سيطرتها احتفظت بالحكام المحليين بعد أن جعلت منهم زعماء تابعين. وفي إنجلترا كان من أثر الفتح النورماندي خلق طبقة من «البارونات Barons»، تتمتع بامتلاكات منحها لها الملك مباشرة واحتلت بذلك أسمى مكانة في المجتمع على حين أن العشائر القديمة الأنجلو سكسونية وجدت نفسها قد نزلت إلى مرتبة دون مرتبة أصحاب الإقطاعيات.

وقد حدث في كثير من الأحيان أن أجبر الشعب المهزوم — كله أو جزء منه على النزول إلى مرتبة الأرقاء أو عبيد الأرض

إذ يستولى الشعب المنتصر على الأراضى بأكلها ويجبر أفراد الشعب المهزوم على زراعتها لحسابه الخاص بوصفهم عبيداً أو أقناناً . وقد حدث ذلك بوجه خاص فى أسبارطه . إذ لما كان الاسبارطيون قد فرضوا أنفسهم على البلاد التى فتحوها بقوة السلاح وأقاموا معسكراتهم فوق أراض معادية يسكنها عدد من السكان يفوق عددهم ، فقد وجدوا منذ اللحظة الأولى أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بسلاطنتهم إلا إذا أخضعوا أنفسهم لنظام عسكري صارم يتدربون عليه منذ نعومة أظفارهم . وبذلك قام لديهم نظام سيادة الدولة سيادة مطلقة على الأفراد . فلم تكن الدولة تسمح — كما يقول درويزن « Droysen » — لمن يريد أن يكون فى عداد مواطنيها بأن يكون له أى نوع من الوجود الخاص وكانت هى التى تحدد نظام تربية الأطفال بل ونظام تأديب البالغين وفقاً للصالح العام . ولما كان المواطنون بأسرهم جنوداً فقد حرم عليهم كل عمل تجارى أو صناعى بل حرم عليهم أيضاً الاشتغال بالزراعة مع أنهم كانوا ملاك الأرض . ولذلك فإن الأرقاء *les hilotes* هم الذين كانوا يزرعون الأرض ويكفلون بذلك غذاء المحاربين من غلتها . وفيما عدا هؤلاء كان هناك عدد من السكان يسكنون المدن فى المناطق الجبلية ويتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتى المحلى وهؤلاء هم سكان البلاد المفتوحة *les Périèques* وكانوا يحتلون الأراضى الخارجة عن نطاق الأراضى التى تحتكرها الدولة أى

التي يخصص محصولها — كما قلنا لغذاء المواطنين المحاربين ويقوم على زراعتها الأرقاء . وكان هؤلاء السكان يدفعون الضرائب ويؤدون الخدمة العسكرية ولكن لم تكن لهم حقوق سياسية بل لم يكونوا متمتعين بالحقوق المدنية كلها . فلم يكن في مقدورهم مثلا الزواج من المواطنات الاسبرطيات أو أن يكونوا ملاكا في الأرض الوطنية . وهكذا نرى ثلاث طبقات تشترك في العيش على أرض واحدة وتحت حكومة واحدة وأكبر الظن أنها كانت تمثل ثلاث شعوب متباينة . طبقة الاسبرطيين وهي الطبقة المسيطرة ، وطبقة أنصاف الأحرار وهؤلاء كانوا أحراراً من الناحية الاقتصادية ولكنهم كانوا خاضعين في كثير من أمورهم لأفراد الطبقة الأولى ، وأخيراً طبقة الأرقاء وهم عميد الأرض .

وفي مناطق أخرى من بلاد الأغر يق ظلت الأرض مدة طويلة يزرعها أقنان أرقاء كانوا في الأصل سكان بلاد غلبت على أمرها بسبب الغزو . وحين صدر دستور « سولون Solon » في أثينا ألغى استخدام عميد الأرض ابتداء من مطلع القرن السادس قبل الميلاد ولكن هذا النظام ظل قائماً في مناطق أخرى طوال العصور التاريخية . وكان يخضع له « المينوت Mnotes » في جزيرة كريت و « الجيمينيت gymnètes » في منطقة أرجوس و « والبنيست pénestes » في منطقة تساليا Thessrlie .

ولم يكن هؤلاء جميعاً يلتزمون إزاء المالك إلا بدفع مبلغ ثابت نظير استغلالهم للأرض فكان شأنهم في ذلك شأن رقيق الأرض في العصور الوسطى والأرقاء في اسبارطة . على أن ما يزيد من غلة الأرض على هذا المبلغ كان يجعلهم في غالب الأحيان أغنى من أسيادهم . ولم يكن في استطاعة هؤلاء ترك الأرض بل كانوا يباعون معها إذا بيعت وقد كفل هذا النظام لهم ولأولادهم فيما بعد امتلاك الأرض التي كانوا يجرون على زرعها من قبل .

ومما يمكن إرجاعه كذلك إلى علاقات التبعية بين شعب وآخر التمييز الذي كان قائماً في أثينا بين المواطنين ، أى الذين يولدون من أبوين أثينيين، وبين المهاجرين أو الأجانب الذين منحوا حق الإقامة الدائمة، وكانوا عادة ممن وفدوا على البلاد للاشتغال بالتجارة. وهؤلاء كانوا يدفعون الضرائب كالمواطنين بالإضافة إلى بعض الضرائب الخاصة بهم فكان الأجانب في أثينا يدفعون ضريبة رأس بمعدل ١٢ دراخمة عن الرجل وستة درخمتان عن المرأة . وكانت تفرض عليهم كذلك الخدمة العسكرية وكان لهم حق حضور الحفلات الرسمية الكبيرة والمساهمة فيها بأموالهم . ولكن لم تكن لهم أى حقوق مدنية فلم يكن يسمح لهم بالتصويت في الانتخابات ولم تكن تسمع أقوالهم أو شهادتهم في المحاكم بل ولم يكن لهم الحق في أن يمتلكوا أرضاً أو عقاراً .

( ٧١ )

كذلك لم يكن يسمح لهم بالسكنى إلا فى منازل مؤجرة .  
وكانت القوانين تحتم على كل منهم أن يكون له مدير prostate  
يمثله فى جميع الشئون التجارية أو المدنية وإذا أغفل ذلك تعرض  
لعقوبات قاسية قد تصل إلى حد بيعه فى الأسواق كالعبيد .

وفى روما كان الأجانب المتوطنين الذين عاشوا فى البلاد أجيالا  
متعاقبة ولمدة طويلة يكونون طبقة مستقلة هى طبقة « العامة » Plebs  
وتتميز فى أصلها عن الشعب الرومانى Populus Pemanus  
كما أن أفراد طبقة العامة ليسوا موالى Olients فالمولى يشترك  
فى الطقوس الدينية التى يرأسها عاهل الأسرة ويعد عضوا فى  
الأسرة الكبيرة . أما طبقة العامة فلم يكن لها طقوس دينية خاصة  
بها ولم يكن أفرادها ينتمون إلى الأسرة الرومانية بل كانوا إما  
أجانب أو من نسل الأجانب المتوطنين من بقايا شعب غلب على  
أمره قديما . وقد نلتقى فى هذه الطبقة بأشخاص مطرودين من أسرهم  
محرومين من الانتماء إلى عقيدتها إما لاثم أقر فوه جعل دخولهم  
المعبد محرما أو لأنهم تركوا الأسرة باختيارهم بعد أن كانوا من  
مواليها . ولا يسكن العامة المدينة الدينية ( روما المقدسة ) فهى  
مقر الاشراف والموالى وحدهم وتقول الاساطير أن « روميولوس »  
هو الذى أسسها وفقاً للشعائر الدينية على هضبة « پلاتان » ويحتل  
العامة منطقة محصورة فى سفح جبل « كابينتولان » يقال إن

روميولوس أسس فيها ملجأً يحتوى فيه من لا نار لهم<sup>(١)</sup> ولا ماوى بحيث يظلون بعيدا عن نطاق المدينة المقدسة . ويضيف فوستيل دى كولانج إلى ذلك أنه « حين قدم إلى روما بعد ذلك عدد جديد من العامة الذين كانوا يعدون أغرابا بالنسبة لديانة المدينة رتبت السلطات أمر استقرارهم على هضبة « أفنتين » ، وهى إحدى الهضاب السبعة التى يتكون منها نطاق مدينة روما القديمة . ومعنى ذلك أنهم كانوا خارج حدود المدينة الدينية » .

هكذا كانت حال طبقة العامة فى الأصل فلم يكن لها حق امتلاك الأرض أو حق عقد الزواج وفقا لمراسم روما الدينية ولم يكن لها حقوق سياسية ويبدو كذلك أنه لم تكن هناك قوانين تحميها . ولم تستطع أن تحصل على حقوق المواطنين إلا بعد أجيال طويلة من الكفاح المرير اندمجت بعده فى الشعب الرومانى الذى كان لا يشمل فى بادئ الأمر غير الأشراف ومواليهم .

### نتائج تقسيم العمل :

إلى جانب علاقات التبعية التى تتكون نتيجة لظروف تاريخية

---

(١) كان شكل أسرة فى العصر الرومانى مذبح فى وسط الدار توقد فيه النار بصفة مستديمة . وكان انطفاء النار معناه زوال الأسرة . وقد جاءت كلمة *foyer* بمعنى منزل الأسرة فى اللغة الفرنسية من هذا الأصل القديم ، أى المسكان الذى توقد فيه النار وسط منزل الأسرة .  
( المترجم )

أو لضرورات اجتماعية بين أفراد أو أسر أو شعوب لا متجانسة بقدر قليل أو كبير ، هناك علاقات أخرى تسهم في تكوين طبقات اجتماعية على أسس أكثر وضوحا . ونعني بها العلاقات التي تنتج عن تقسيم العمل الاجتماعى وهى علاقات تكونت بين الأفراد والأشياء خلال الجهود التي بذلها بنو الإنسان لتوفير أسباب معيشتهم وزيادة رفاهيتهم من جهة ولتنظيم المجتمع من جهة أخرى . وتتكون الطبقات على هذا النحو من التنوع وعدم التساوى بين الحرف التي توزع حولها النشاط الإنسانى أى أنها تنفرع أساسا على الحرفة أو المهنة أو الوظيفة التي تمارس في المجتمع .

هذا ما نلاحظه عند بعض الشعوب البدائية . ففي جزائر « ساندويتش » حسب قول « ايليس Ellis » ، توجد بالمجتمع أربع مراتب الأولى تشمل الملك والملئكة والأسرة المالكة والوزير الأول للملك، والثانية حكام الجزر ورؤساء التقسيمات المحلية الكبيرة، وتشمل الثالثة رؤساء المناطق أو القرى الذين يدفعون إيجارا ثابتا للأرض التي يزرعونها بوساطة خدامهم أو يعهدون باستغلالها إلى وكلائهم، أما المرتبة الرابعة فهي مرتبة الطبقات العاملة التي تتكون ممن يستأجرون قطعاً صغيرة من الأرض لزراعتها أو يعملون في الأرض نظير غذائهم وكسائهم كما تتكون أيضا من الصناع والموسيقيين والراقصين . وتنقسم هذه الطبقات

بدورها إلى تقسيمات فرعية تحتوي على الصناعات أصحاب المراتب  
وعمال الأرض والعييد .

كما نلتقى أيضاً بمراتب اجتماعية لدى السكان الذين يعيشون  
على الفطرة في زيلنده الجديدة وهذه المراتب عددها ستة . كما أن  
قبائل « الاشانتى Achantis » البدائية تحتوي كذلك على ستة  
مراتب على حين نجد مراتب خمسة عند الأجباش .

وتعطينا روسيا إبان عهد القيصرية مثالا آخر للمجتمع  
الذى يتدرج في مراتب تبعا للحرف فكان سكان الريف يحترفون  
الزراعة بطبيعة الحال وكان سكان المدن يحترفون الصناعة  
أو التجارة على حين يكرس القسس والرهبان جهودهم لخدمة  
الكنيسة أو المذبح بينما كان النبلاء يتولون الوظائف العامة . وقد  
أعطى بطرس الأكبر هذا التقسيم التلقائى الطبيعى للعمل صفة  
رسمية بأن أصدر تشريعا يحدد طبقات المجتمع بأربع طبقات كبرى  
وينظم شئون كل منها بلائحة خاصة . ولم يكن لآى من هذه  
الطبقات حقوق سياسية ولكن النبلاء ورجال الكنيسة والصفوة  
المختارة من سكان المدن كانوا يحصلون بطريق القانون وبارادة  
القيصر على بعض الامتيازات : وأهمها الإعفاء من الخدمة العسكرية  
والإعفاء من أفدح الضرائب المباشرة وهى ضريبة الرأس ومن  
العقوبات الجسمية التى كانت توقع بالسوط أو أعواد الخيزران .  
أما الطبقات التى لا امتيازات لها وهى التى تتكون من جمهرة سكان

المدن ومن صغار البورجوازيين وصغار التجار والصناع ومن رقيق الأرض فهؤلاء جميعا كانوا يدفعون ضريبة الرأس وكانوا معرضين لتطبيق العقوبات البدنية عليهم وكان لكل من هذه الطبقات التي انقسم إليها المجتمع الروسى تنظيمه الخاص وتشكيلاته النقابية وجمعياته وزعمائه المنتخبين كما كان لكل منها أحيانا محاكمه وقضاته. وكانت كل طبقة تتولى الوصاية على أعضائها القصر بل كانت مسؤولة فى بعض الأحيان عن أعضائها الذين بلغوا سن الرشد .

ومثال روسيا هذا يوضح لنا أن تقسيم الطبقات الذى يذشأ تلقائيا نتيجة لتقسيم العمل يمكن أن يصبح تقسيما صارما بتدخل الدولة حين تنزع نحو تحويله إلى شبه طوائف .

وهناك أمثلة أخرى من مجتمعات أخرى تبين لنا كيف تتكون طبقات جديدة بتأثير النظم العسكرية أو المدنية أو الدينية أو عن طريقها .

### تأثير النظم العسكرية :

فى بدء حياة كثير من المجتمعات وعلى الأخص المجتمعات اليونانية والرومانية القديمة وفى مقدونيا والبلاد الأوربية عامة فى العصور الوسطى ، وفى الهند وجدت طبقة من الأرستقراطية العسكرية قوامها النبلاء الذين كانوا مرشحين بفضل محتدم لتقلد المناصب العسكرية ووظائف الإدارة فى الدولة . وهم سلاطة

الأسر العريقة في أثينا Les Eupatrides والأشراف في روما وأمراء الإقطاع في العصور الوسطى الخ... وقد دعيت طبقات أخرى فيما بعد لحمل السلاح وتولى مناصب القضاء والاشتراك في الحكومة. واقتربت بذلك من طبقة النبلاء ثم نافستها واستطاعت في بعض الأحيان أن تستدجها أو تحل محلها بالاستيلاء على كل أو بعض المناصب التي كانت في الأصل قاصرة على النبلاء.

ولم تكن الدولة في العصور اليونانية الرومانية القديمة هي التي تتولى تسليح العسكريين وتزويدهم بالعتاد الحربي كما هي الحال في أيامنا هذه. بل كان هؤلاء يتسلحون ويعدون أنفسهم على حسابهم الخاص. فلم يستطع حينئذ أن يخدم في سلاح الفرسان إلا الأغنياء القادرين على امتلاك حصان. كذلك لم يستطع أن يخدم في سلاح المشاة إلا من كانت لديهم الوسيلة لشراء الخوذة والدرع. وفي أثينا كان الشبان الأغنياء يخدمون في سلاح الفرسان، وكان أفراد الطبقات الوسطى يكونون وحدات المشاة المسلحة تسليحا ثقيلًا، أما أفراد الطبقات الدنيا فكانت تتألف منهم فرق الرماة والمهاجمين أما المعدمون الذين لا يملكون إلا قوة أذرعهم فكانت مهمتهم تحريك المجاديف في قطع الأسطول.

ولم تختلف الحال عن ذلك في روما، فحين سمح الإمبراطور سرفيوس توليوس Tullius للعامّة بحق المواطنة، وأدججهم في الشعب الروماني، تكونت سبع طبقات واعتبرت الأولى والأخيرة

منها خارج التنظيم الطبقي hors classe . أما الأولى وهي التي كانت على رأس الطبقات جميعا ، فقد كانت تضم أكثر الأشراف والعامه ثراء وكان يطلق عليهم اسم الفرسان les chevaliers وتأتى بعد هؤلاء خمس طبقات تضم الأولى منها المواطنين الذين يمتلكون عقاراً لا يقل عن ١٠٠ ألف ذراع مربع . ثم تتابع الطبقات الأخرى مرتبة حسب الثروة كذلك فكانت الطبقة الثانية تشمل من يمتلكون ٧٥ ألف ذراع فما فوق والطبقة الثالثة من يمتلكون ٥٠ ألف فما فوق والطبقة الرابعة ٢٥ ألف والطبقة الخامسة ١٢ ألف وخمسةائة . وتنتهى الطبقات من أسفل بفئة أخرى خارجة عن التنظيم الطبقي هي فئة المعوزين . وقد أنشئ هذا التقسيم الطبقي لغاية حربية فوزعت الوظائف والتبعات العسكرية على قدر ثروة كل طبقة وذلك على أساس المبدأ السائد فى ذلك الوقت والذي كان يرى أن المواطنين يزداد اهتمامهم بالدفاع عن المدينة بقدر ما لديهم من ثروة . فكانت أكثر الفئات ثراء ، وهي التي ذكرنا أنها خارج التنظيم الطبقي ، تتوزع على ثمانى عشرة وحدة مئوية ( أى أن كل وحدة كانت تتألف من مائة فارس centuries ) ومنها يتكون سلاح الفرسان . وكانت الطبقات الأولى تعمل فى المشاة وفى الصفوف الأولى ، وتلمها الطبقات الثانية وهكذا . أما الفقراء وأفراد الطبقة الكادحة فكانوا يعفون من كل خدمة عسكرية . ولكن حصاره فيس veies ، فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد أرغم القواد على تعديل نظام الجيش . فضم المواطنون من

الطبقة الأولى إلى وحدات الفرسان الثمان عشرة، وأجبروا على الخدمة في سلاح الفرسان رغبة في زيادة وحدات هذا السلاح . وقد تكون من هؤلاء فيما بعد ما أطلق عليه « رتبة الفرسان ordre équestre »<sup>(١)</sup> .

وفي القرن الثالث (عام ٢١٩ ق . م ) حظر قانون « كلوديا claudia » على رجال السناتو وعلى أبنائهم الاشتغال بالتجارة أو أى مهنة تدر ربحاً فنتج عن ذلك أن وجد رجال الأعمال أنفسهم مبعدين عن الوظائف العامة التي كانوا يصلون عن طريقها إلى عضوية السناتو (مجلس الشيوخ) واقتصر نشاطهم على الأعمال المالية وجمع الضرائب الخ . . . . . وحين أثرى هؤلاء الفرسان من التجارة وجباية الضرائب وأعمال التمويل ، أصبح لهم نفوذ كبير وازداد هذا النفوذ حين أراد أعضاء السناتو التحايل على القانون لزيادة ثروتهم فاستعانوا بهم كوسطاء . وفي القرن الثاني (عام ١٢٩ ق . م ) حين صدر قانون التعارض بين لقب عضو السناتو ولقب الفارس نشأ فاصل محدد بين هاتين الطبقتين المتنافستين .

---

(١) كان هناك فرق في التسمية بين الفئة الأولى من الفرسان equites equo publico والفئة التي انضمت بعد ذلك equites equo privato

تأثير النظم المدنية :

لم تكن النظم العسكرية وحدها هي التي تعمل على تكوين طبقة أو طبقات جديدة بل أن النظم المدنية لها كذلك أثرها في هذا المجال . ومن أمثلة هذا الأثر تكوين طبقة القانونيين في العصور الوسطى . فقد اصطلح في العهد الروماني على أن يقوم الموثقون بكتابة العقود les notaires وأدى ذلك إلى إنشاء مدارس لتعليم صياغة العقود والمرافعة أمام القضاء . وكانت هذه المدارس يديرها أفراد من غير رجال الدين *laïques* يطلق عليهم اسم « الماجستراه أو الدكاترة »<sup>(١)</sup> وفي منتصف القرن الثاني عشر تقريباً أسس أشهر الأساتذة في دراسة القانون الروماني مدرسة للقوانين المدنية في بولونيا *Bologne* في إيطاليا . وعلى هذا النحو تكونت شيئاً فشيئاً طبقة القانونيين والقضاء والمحامين والموثقين الذين استعان بهم ملوك أوروبا في الوظائف الإدارية والقضائية . وكانت العقود والوثائق يكتبها قبل ذلك رجال من الكنيسة . ولكن عندما تصدرت مدن إيطاليا غيرها في استخدام القانونيين المتمكنين من القانون الروماني كمشرعين وموظفين حذت البلاد الأخرى حذوها وتكونت بذلك طبقة من رجال

---

(١) لما كانت هذه الفئة تمثل أكثر الناس ثقافة فقد اقتبست ألقاب الماجستير والدكتوراه فيما بعد لئلا على الدرجات الجامعية . (الترجم)

القانون انضمت إلى البورجوازية فزادت من حجمها ورفعت كثيرا من شأنها .

وفي فرنسا خلال العصور الوسطى خاصة في عهد النظام الملكي القديم ، أدى التنوع في قيمة إيجارات الأراضي والاختلاف في قيمة ضرائب الإقطاع والتعقد فيما يتصل بتسوية حالة الناس وتحديد أراضيهم وازدياد عدد الإقطاعيات ، أدى كل ذلك إلى توالى صدور التشريعات والأحكام وتنوعت تبعا لذلك درجات رجال القانون ووظائفهم : فمن نظار إقطاعيات prévots إلى موثقين tabellions إلى قضاة Baillis إلى مأمورى ضرائب الخ . . وأصبح عدد كبير من رجال القانون في القرن الثامن عشر يحتلون مراكز ممتازة في كثير من المدن ويعيشون في سعة من أرباح مهنتهم . وفي الوقت الذى تقرر فيه اجتماع مجلس ممثلى الأمة كان رجال القانون على رأس الحركة التى انتهت بقيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ .

ونلاحظ اليوم فى كثير من دول أوروبا ظاهرة من نفس النوع؛ إذ أدى تدخل الدولة فى كثير من الميادين التى كانت فى الماضى بعيدة عن مجال نشاطها ، وادى تكوين المجالس النيابية إلى وجود طبقة من الناس تقدح ذهنها لىكى تسن دائما قوانين جديدة وأصبح التشريع من التعقيد وتنفيذ القوانين من الصعوبة بحيث جعل من الضرورة وجود هيئات ادارية يتخصص كل منها فى فرع من

الفروع القانونية العديدة . ومن ثم أصبحت كل إضافة في التشريع الاجتماعي يتبعها بطريقة آلية زيادة عدد الموظفين الفنيين والإداريين فتكونت بذلك طبقة جديدة هي : البيروقراطية (١) .

### تأثير النظم الدينية :

ويصدق ما قلناه بشأن تأثير النظم المدنية على تأثير النظم الدينية ، ويصح أن ندال على ذلك بتتبع تطور الكنيسة المسيحية فقد كان المسيحيون الأوائل - كما يقول جيزوفى كتابه « تاريخ الحضارة فى أوربا » (٢) يجتمعون ليدوقوا لذة اتحادهم فى العواطف والعقائد الدينية دون أن يكون لديهم مجموعة من المذاهب المقررة والقواعد المنظمة أو هيئة من رجال الكهنوت . ولكن ما لبث أن ظهر بينهم نوع من التنظيم ، فأصبح لديهم القسس أو القدماء anciens والرعاة surveillants وخدام الكنيسة الذين كانوا يتولون جمع الصدقات وتوزيعها والعناية بالفقراء . ومع ذلك ظلت السلطة العليا فى يد كتلة المؤمنين الذين كانوا يجتمعون فى جمعية عامة ecclesia لانتخاب القسس والأساقفة . وما أن أتى القرن الثالث حتى كون الأساقفة والقسس هيئة طائفية أخذت تحتكر كل ما يتصل بالعقيدة والوعظ والتعليم . على هذا النحو

(١) أى طبقة من يشغلون خلف المكاتب . (المرجم)

Guizot : Histoire de la Civilisation en Europe . (٢)

تكونت طبقة من رجال الدين *clercs* تميزت عن بقية العامة من لا شأن لهم بالدين *laiques* . وأصبحت كلمة *le clergé* الفرنسية تدل على طبقة رجال الكنيسة بجميع مراتبهم . ثم انفصلت هذه الطبقة شيئاً فشيئاً فيما بعد عن الشعب : إذ عندما أصبحت الإمبراطورية الرومانية مسيحية وتولت حماية الكنيسة ورعايتها جعلت من أفراد الشعب المؤمنين رعايا ومن رجال الكنيسة حكاماً مسيطرين . واستطاع رجال الدين على هذا النحو أن يتحرروا من رقابة المجامع الدينية وأن يتولوا وحدهم إدارة جميع أملاك الكنيسة وأن يستولوا وحدهم كذلك على ريعها . وما أن وافي القرن الخامس حتى كانت الدول المسيحية في الغرب تفصل فصلاً تاماً بين المجتمع المدني والمجتمع الكنسي . وبذلك خلقت طبقة جديدة .

#### تأثير الثروة والثقافة :

تقوم الثروة أو الثقافة أو هما معاً في بعض الأحيان بدور في تكوين الطبقات تحت تأثير النظم العسكرية أو المدنية أو الدينية .

ولننظر أولاً في أثر الثروة . فقد كان أغلب أمراء الإقطاع ممن كانوا يكوّنون الأرسقراطية العسكرية في العصور الوسطى من كبار ملاك الأراضي أو ممن يتولون المناصب الكبيرة . فكان لهم الحق من أجل ذلك في التمتع بريع المزارع الكبيرة ؛ لذلك كانوا

يتملكون ثروات ضخمة تمكنهم من تحصين قصورهم والانفاق على حامية من الجنود . وقد رأينا كذلك في اليونان وفي روما أن التزام الفارس بتسليح نفسه وإعدادها على نفقته الخاصة كان من نتيجته وضع كل طبقة حسب ثروتها في سلاح خاص : الفرسان أو فرقة المشاة الثقيلة أو فرقة المشاة الخفيفة الخ . . كما رأينا كيف انتهت طبقة الفرسان في روما عندما أثرت بمزاولة الأعمال التجارية — بتكوين مرتبة جديدة في الدولة .

لكن هناك حالات أخرى تؤثر فيها الثروة بذاتها ويكون الثراء الناتج عن ممارسة حرف مربحة سبباً يدفع إلى تكوين طبقة جديدة . فعندما أثرى في اليونان عدد من المواطنين عن طريق التجارة البحرية استطاعوا أن ينشئوا « حضائر واسطبلات » لتربية الخيول والبغال التي كانت تدرّب خصيصاً للسباق . وعن طريق تربية الخيول والفوز بها في سباق العربات في الألعاب الأولمبية ، كونوا لأنفسهم طبقة خاصة من النبلاء اشتهرت بكرمها ونشاطها وحب الشعب لها نظراً لما كانت تحققه له من أرباح بترفها وما تهيء له من متعة في مناسبات النصر بعرض الألعاب البديعة واعداد الولايم الدسمة . « ويضيف كورتوس Curtius إلى ذلك قوله إن هؤلاء النبلاء كانوا في تباين تام مع طائفة « الدوريين les doriens » التي اشتهرت بتزمتها وبخلها والتي لم تكن لذلك محبوبة من الشعب . وقد حدث كذلك في روسيا السوفيتية عندما قرر « لينين »

في عام ١٩٢١ العودة إلى الاقتصاد الحر بعد أن حدثت مجاعة بسبب نظام تجميع الأراضى في يد الدولة والاستيلاء على المحاصيل بالقوة أن أصبح عدد كبير من الفلاحين في حالة ثراء مما أدى إلى تكوين طبقة جديدة من المزارعين الموسرين هي طبقة الكولاك *les koulaks* ، التي قضى عليها فيما بعد ، وتبعثر أفرادها في السجون والمعقلات لاتهمها بالعداء للنظام الشيوعى وذلك في الوقت الذى عدلت فيه الحكومة عن تطبيق النظام الحر في الاقتصاد .

وهناك مثال آخر وهو تكوين طبقة من نبلاء رجال القانون كنتيجة لتجمع الثروة في يد البورجوازية . ذلك أن النهضة الاقتصادية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، أتاحت لعدد كبير من التجار تحقيق أرباح وفيرة لاتقع تحت طائلة النظام الضريبي مما اضطر الملكية إلى البحث عن وسيلة لتقاضى جُعل عن هذه الثروات الجديدة . فابتدعت نظام بيع الوظائف الجديدة وعلى الأخص المراكز الخاصة بتولى القضاء وأصبح رجال القانون بذلك ، سلطة رابعة ، على حد قول فيلسوف القرن السادس عشر مونتني *Montaigne* . وفي جمعية ممثلى الأمة التي انعقدت في سنة ١٥٥٨ كانت طبقة العامة *le Tiers Etats* تحتوى في الواقع على قسمين : رجال القانون من ناحية وءثلو المدن من ناحية أخرى . وقد صارت هذه الفئة الارستقراطية ،

فئة رجال القانون ، بعد أن اعترف بها كنظام في الدولة ، صارت طبقة متميزة عن البورجوازية وعن طبقة النبلاء في آن واحد . وأصبح القاضى الذى اشترى وظيفته بالمال لا يعزل منها إلا إذا رد إليه ما دفعه . وتمتع القضاة على هذا النحو باستقلال كبير جعل الملوك يجدون صعوبة فى استمالهم . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة من الأب إلى ابنه أدركنا كيف تكونت أسر من رجال القانون تحابى كل أسرة أقرباءها فاتسعت بذلك شقة الفوارق الخلقية التى تميز هذه الطبقة من الطبقات الأخرى .

وفى روسيا السوفيتية أعلن القادة عن رغبتهم الأكدية فى إنشاء مجتمع بدون طبقات . لكن حكم الواقع انتصر آخر الأمر على تدبير الأفراد . إذ تكونت طبقات جديدة وذلك حسب شهادة السير والتر سيترين Walter Citrine التى أكدتها أقوال داي فون دبلوس Deblos ، وكوستلر وكرافشنيكو وغيرهم ممن عاشوا فى المجتمع السوفيتى . فلم يلبث محترفوا السياسة والمختصون فى الاقتصاد السياسى أن زعموا بما أتاحه لهم مركزهم الممتاز وأصبحت لهم عادات وطرق فى العيش تميزهم عن عامة الشعب : فسكنوا «الفيلا» وألفوا الإقامة فى مدن الاستحمام صيفا وفى المشاق شتاء الخ . . . كما أخذت سيدات بعض رجال السكر ملين فى شراء ملابسهن من باريس ، أما هؤلاء الرجال أنفسهم فإنهم يعيشون أحسن بكثير مما

يعيش أقدر العمال وأكفأهم . والواقع أن عدم تساوى المرتبات والأجور يؤدي حتماً إلى الاختلاف فى وسائل المعيشة وإلى تكوين علاقات بين من يعيشون فى مستوى واحد وبالتالى إلى تكوين الطبقات . بل لقد تنبأ سير والترستين بأن نظام الأجر « بالقطعة » ومكافآت زيادة الإنتاج وهما الوسيلتان اللتان اتخذتا لتشجيع العامل ولزيادة الإنتاج قد تؤديان إلى تكوين طبقة بورجوازية جديدة .

وليس تأثير الثقافة بأقل من تأثير الثروة فى تكوين الطبقات الجديدة . فى القرنين الرابع والخامس ، حين دخل الناس أفواجا فى المسيحية ، وكان منهم فريق أثاروا الشكوك من ناحية أخلاقهم وميلهم إلى الوثنية لم تلبث الشقة أن اتسعت بين رجال الكنيسة والشعب . وادعى رجال الدين أن لديهم وحدهم من الايمان والثقافة ما يكفل حسن القيام على تعليم الدين وتفسير الإنجيل وما على جموع الشعب من المسيحيين إلا أن يستمعوا ويؤمنوا .

وجاء بعد ذلك عصر ضعف فيه سلطان رجال الكنيسة بمقدار ما ازدادت ثقافة العامة . وقد ساعد على ذلك اختراع الطباعة الذى جعل الإنجيل فى متناول كل يد وأصبح من الميسور للمسيحيين أن يتبصروا فى الدين بقراءة الكتب المقدسة . أما فى البلاد البروتستنتية حيث رفض الناس سلطة الكنيسة ونظام المراتب فيها كما حدث فى جزء من ألمانيا ، فقد قلت الفروق بين « الرعاة » وبين أفراد

( ٨٧ )

الشعب . وقد حدث نفس الأمر في اسكتلنده ومن باب أولى في فرقة « المستقلين » حيث كان أول عابر سبيل يعتقد أو يقول عن نفسه أنه ملهم — يستطيع أن يقف على المنبر ويعظ الناس بأقوال الله .

ولاشك أن تكوين طبقة رجال القانون في العصور الوسطى بفضل دراسة القانون الروماني يزودنا بمثال آخر على تأثير الثقافة وتقدم المعرفة . وقد حدثت ظاهرة مماثلة في روسيا إبان عهد القيصرية . فقد كانت الإصلاحات التي ادخلها الإمبراطور إسكندر الثاني وخاصة إصلاح النظام القضائي تتطلب لتطبيقها رجالا مستنيرين فنشأت على هذا النحو وظائف ومهن تقتضى معارف عامة وخاصة .

وحين فتحت الجامعات وتقدم التعليم وأنشئت السكك الحديدية التي قربت المسافات الشاسعة وساعدت على التوسع في التجارة والصناعة دعت الحاجة إلى الاساتذة والمهندسين والقضاة الخ . . وقد مهدت هذه العوامل لظهور طبقة جديدة من البورجوازية هي أصحاب المهن الحرة إلى جانب البورجوازية القديمة التي قامت على التجارة وحدها .

## الفصل الثالث

### تطور الطبقات

نعود إلى ما ذكرناه في المقدمة فنقول إن الطبقات الاجتماعية حقائق مائعة وذلك لأكثر من سبب . فنحن لانستطيع دائما أن نحدد بدقة أين تبدأ إحداهما أو أين تنتهي . ثم أنها بعد ذلك غالبا ما تتغير بفعل الحوادث التاريخية أو التقدم العام للحضارة . فقد يحدث بين يوم وليلة أن تجد الطبقة نفسها وقد ازدادت قوتها وثروتها ونفوذها وقد يحدث العكس فتجد نفسها وقد هبطت إلى درجة أدنى . ويمكن أن نطلق على هذه الظاهرة اسم « ارتفاع الطبقات وتدهورها » .

ويتخذ التطور على كل حال شكلين متميزين : فقد يحدث أن ترتفع الطبقة في مجمرعها إلى مستوى طبقة أخرى كما حدث في روما حين أصبحت مرتبة الفرسان ندا لمرتبة رجال « السناتو » . بل أن الطبقة في ارتفاعها قد تنزع السيطرة من طبقة أخرى كما حدث للبورجوازية في أعقاب الثورة الفرنسية حين حلت محل طبقة النبلاء القديمة . وقد يحدث كذلك أن تظل الطبقة في مجموعها على وضعها الأصلي تقريبا لكن عددا من أفرادها أو فئة متزايدة منهم ترقى إلى طبقة أعلى وتندمج فيها إما عن طريق الزواج أو عن

( ٨٩ )

طريق اكتساب حقوق هذه الطبقة العليا . ويجدر بنا أن نفرق بين هذين الشككين من أشكال التطور الطبقي . ففي الحالة الأولى يحدث في الواقع ارتقاء حقيقي من طبقة إلى طبقة ؛ أما في الحالة الثانية فإن ما يحدث يمكن أن نسميه تداخلاً أو اندماجاً .

وهناك علاقة بين هاتين الظاهرتين بالرغم من أنهما منفصلتان فكلما ازدادت الطبقة قوة ونفوذاً تاقت نفسها إلى اكتساب المزايا والامتيازات التي تتمتع بها الطبقات العليا .

ففي فرنسا عام ١٧٨٩ حاولت طبقة العامة أن تساوى طبقة النبلاء ولم تجد من وسيلة للوصول إلى مستواها خيراً من إلغائها نهائياً . وفي إنجلترا استطاع كبار التجار الذين أثروا عن طريق ممارستهم للعمليات المالية أن يدخلوا مجلس اللوردات الذي ظل مدة طويلة قاصراً على النبلاء أصحاب الألقاب الوراثية . وفي فرنسا يلاحظ اليوم أن العمال يحاولون الاصطباغ بالصيغة البورجوازية فيطالبون بالاشتراك في إدارة المشروعات ومراقبة الحسابات ويضغطون في سبيل ذلك على الحكومة عن طريق اتحاد نقابات العمال وعلى هذا النحو تنزع الطبقات إلى أن يتكامل بعضها مع بعض وإلى أن يندمج بعضها في بعض .

ومن ناحية أخرى فالطبقة التي تنحدر تتلاشى تدريجياً في الطبقات الدنيا وتقتبس إلى حد ما أسلوب حياتها وعاداتها

(٩٠)

وطرق سلوكها . وعلى ذلك فإلى جانب التسوية فى مستوى عال  
تسوية فى مستوى منخفض : من ذلك ما حدث للطبقات الوسطى  
فى ألمانيا بعد الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ وفى فرنسا  
بعد تحريرها من الاحتلال الألمانى فى الحرب الأخيرة فإن هذه  
الطبقات قد اتسمت بسمة الطبقات الكادحة بسبب التدهور  
المطرّد فى حالتها المادية .

ويذكر التاريخ بالأمثلة عن الطبقات التى ارتفعت عن طريق  
اندماجها فى الطبقات العليا والطبقات التى انخفضت عن طريق  
اندماجها فى طبقة دنيا . وسنقدم الآن بعض الأمثلة التى تعد نماذج  
لكل من هاتين الظاهرتين .

### تداخل الطبقات أو اندماجها :

فى القرون الأخيرة من تاريخ الدولة الرومانية دعت حاجة  
المجتمع لإصلاح الأراضى وإعدادها للزراعة حتى يتجنب المجاعة  
ويضمن للناس ما يقيم أودهم - دعت هذه الحاجة إلى أن تفرض  
الدولة من القوانين ما يلزم الفلاحين بالبقاء فى الأرض ويبيدهم  
عن التفكير فى هجرة القرى . وفى الوقت نفسه اضطر عدد كبير  
من صغار الملاك - رغبة فى التهرب من عسف الضرائب أو خوفا  
من أن ينتزع جار قوى أرضهم من أيديهم - اضطروا إلى بيع  
أراضيهم لكبار الملاك بشرط أن يضمنوا لهم الاستمرار فى زراعتها

هم وذريتهم من بعدهم . وكانت المصلحة مشتركة بين كل من المالك والمزارع — فقد كان الأول يريد أن يكون لديه دائماً من يباشر زراعة أرضه وكان الثاني يتوق إلى الاحتفاظ بمركزه في مزرعته طوال حياته ، وإلى ضمان انتقالها من بعده إلى أولاده — هذه المصلحة المشتركة جعلت المالك والمزارع يوقعان في كثير من الأحيان اتفاقاً يتعهد المزارع بمقتضاه بالنسبة لشخصه ولأولاده بالألا يتركوا الأرض أو يهجروها لأي سبب من الأسباب كما يتعهد المالك بالألا يطردهم منها أبداً ما داموا يؤدون له ما اتفق على أدائه سنوياً نظير استغلال الأرض وهو مبالغ غير قابل للزيادة أو النقصان . وبمضى الوقت انضمت إلى فئة صغار الملاك هذه فئة أخرى أصلها من البرابرة الذين وقعوا أسرى في الحروب ، فألحقوا بأراضي يستصلحونها ويزرعونها بالشروط نفسها . فأصبحت زراعة الأرض بواسطة الملتصقين بها تشمل فئات تختلف فيما بينها أشد الاختلاف من حيث حالتها الاجتماعية . فكان فيها العبيد المقيدون في سجلات الإحصاء كجزء لا يتجزأ من الإقطاعية فيها ، وكان فيها المعتوقون الذين كانوا يزرعون الأرض لحساب أحد الأسياد ، والمزارعون الذين يستقرون — كما قلنا — في الأرض ويتمتعون بامتياز استغلالها أبا عن جد ، وصغار الملاك القدامى الذين تخلوا عن أرضهم لمالك كبير بشرط أن يحتفظوا بحق استغلالها ، والبرابرة من قداماء الأسرى الذين أجبروا على

زراعة الأرض . هذه الفئات جميعا اندمجت في طبقة واحدة هي طبقة الزراع التي ضمنت لنفسها الانتفاع بالأرض وانتقالها من الأب إلى الابن نظير ما تقدمه إلى المسالك من جعل ثابت لا يزيد أو ينقص وكانت هي في مقابل ذلك تستقر في الأرض ويسلمها كل جيل إلى الجيل اللاحق .

هذا المثال يوضح لنا كيف أن أفرادا من طبقات مختلفة ينخرطون بحكم الظروف في مستوى واحد هو على وجه التقريب مستوى أقلها مرتبة . أما تطور طبقة الموالى في أثينا وفي روما فإنه يصور لنا على عكس ذلك حالة طبقة تتحرر تدريجياً وترتفع إلى مستوى أعلى .

ففي أثينا كانت الأسر الكبيرة من ملاك الأراضى الذين كان يطلق عليهم اسم ذوى الأصل العريق Eupatrides تجمع حولها نفرا كبيرا من الموالى يتولون شئون الأراضى . وقد استطاع هؤلاء أن يحصلوا على قطع من الأراضى يتصرفون فيها كما يشاءون بشرط واحد هو أن يدفعوا جعلاً ثابتاً يوازى سدس قيمة المحصول وفى حالة اخلال المولى بهذا الشرط كان من حق السيد أن يرد خادمه القديم إلى حالة الرق . ولكن القانون الذى شرعه « صولون Solon » أفر بأن عدم الدفع لا يجيز إرجاع المولى إلى الرق بل سمح له أن يصبح بدوره مالكا حر التصرف فى أرضه .

( ٩٣ )

وفي روما تطورت حال الموالى بطريقة مماثلة . ففي الأصل كان السيد يعين للمولى قطعة أرض يزرعها فلم يكن هذا الأخير سوى خادم أو على الأصح عامل زراعى حكم عليه منذ ولادته بأن يربط مصيره بسيد ليس له الحق فى أن يتركه . ولكن بمضى الوقت أصبح هذا المولى مالكا لحق استغلال حصته من الأرض نظير أسهامه فى بعض نفقات السيد ( كأن يدفع له الفدية إذا أسر فى الحرب أو يدفع البائنة لبناته أو الغرامات التى يحكم بها عليه ) ثم استطاع بعد ذلك أن يورث هذا الحق لأبنائه وأخيرا سمح له بأن يوصى بالأرض بعد موته لمن يشاء فأصبحت الأرض فى حالة وفاة المولى بدون وريث لا تعود آليا إلى السيد أو على الأقل لا تعود كلها إلى السيد كما كانت الحال من قبل .

ولم يأت القرن الرابع قبل ميلاد المسيح حتى كانت طبقة الموالى قد تلاشت وأصبح هذا الاسم لا ينطلق إلا على فئة وهمية من الموالى الذين كانوا يختارون بأنفسهم هذا الوضع لما يكفله لهم من حماية أو مساعدة رجل ذى مكانة ونفوذ .

ويصور لنا تطور طبقة العامة فى روما كذلك مقدار اقترابها المطرد من طبقة الأشراف فقد كانت هذه الطبقة فى الأصل محرومة من حقوق المواطنة وهذه الحقوق كانت تشمل حق عقد الزواج الدينى وحق امتلاك الأرض . ولكنها استطاعت شيئا فشيئا أن تصل إلى حق الملكية ، ثم تزوج بنات العامة الأغنياء من أبناء

الأشراف . وبعد أن كان العامة لا يحق لهم التقاضى إلا أمام ساحات خاصة بهم يتولى القضاء فيها «قضاة الشعب» استطاعوا بعد أن قويت شوكتهم أن يقفوا أمام ساحة ذوى الكراسى العاجية<sup>(١)</sup>. ثم جاء بعد ذلك عهد تحتم فيه أن يكون أحد القنصلين من العامة<sup>(٢)</sup>.

وقد ظهرت بوادر التداخل والاندماج بين الطبقات فى فرنسا فى القرن الثامن عشر بل وقبل ذلك فى أواخر القرن السابع عشر. وكان العامل الأكبر فى ذلك أن أسر النبلاء قد حرم عليها الأثراء عن طريق التجارة وإلا فقدت مراكزها. فلذا وجدت أنها تنحدر إلى الفقر وهى فى خدمة الملك والوطن اضطرت إلى تزويج أبنائها من بنات رجال المال الأغنياء حتى تظل شعلتها بموهة بالذهب. وقد لمحت مدام دى جريزيان ( وهى سيدة نبيلة حصلت على لقبها عن طريق زواج من هذا النوع ) إلى هذه الحال حين قدمت ابنة زوجها إلى معارفها بقولها « لا بد من الزبل حتى لأجود تربة » .

---

(١) magistratures curules ، من التقاليد الرومانية القديمة أن يجلس كبار المستشارين من طبقة الأشراف على كراسى عاجية وكان لا يصل إلى هذا المنصب الرفيع إلا عدد قليل وأصبح لقب « الكراسى العاجية » يطلق على أصحاب هذا الامتياز . ( المترجم )

(٢) فى حقبة معينة من تاريخ روما كان على رأس الدولة حاكم كان أطلق عليهما اسم « القنصلين » . ( المترجم )

وقد يحدث اندماج الطبقات على أثر تسوية العادات بينهما مما يؤدي إلى تخفيف أو إلغاء الحواجز التي كانت تفصل بينهما فصلاً حاسماً . من ذلك ما حدث في فرنسا في القرن الثامن عشر حين انتشرت عادة الاختلاف إلى الصالونات الأدبية وتذوق الآداب بين أفراد المجتمع الراقى فقربت بين طبقتي النبلاء والبورجوازية اللتين كانتا تستويان من حيث الثقافة والاستنارة وتفرقان من حيث الامتيازات . وإن قوانين إلغاء ألقاب النبالة في عهد الثورة لم تزد في الواقع على إقرار حالة من التغير كانت قد أصبحت أمراً واقعاً في عرف المجتمع وعاداته . ونحن في أيامنا هذه نلاحظ اتجاهها مماثلانحو التسوية بين الطبقات وهذا الاتجاه مبعثه تقليل الفوارق من حيث الثروة وميل أساليب الحياة إلى الروح الديموقراطية مما ساعد على إيجاد نوع من التجانس في العادات والتقاليد بين الطبقات المختلفة .

وتتضح هذه الحال بوجه خاص في أمريكا . فقد روى لى زميل زوج ابنته لاحد الأمريكيين أن ابنته هذه كانت تستعين بزوجة أحد العمال للقيام بأعباء المنزل . وكان هذا العامل يمتلك سيارة يذهب بها إلى مصنعه . كما كان لزوجته سيارة تحملها في ذهابها للخدمة في بيوت الناس . ويمكننا أن نضع هذه الحالة إلى جانب حالة أخرى أكثر غرابة . فقد روى أحد كبار المشتغلين بالنقل الذين يترددون كثيراً على الولايات المتحدة بحكم عملهم أن مدير أحد المصانع كان

يملك سيارة فاخرة ولكنها كانت من حظ زوجته وابنته وحدهما، أما هو فقد كان يركب « المترو »، كل يوم للذهاب إلى عمله . يبدو لي أن هذين المثالين الصغيرين يوضحان بما فيه الكفاية كيف أن التحديد والفواصل بين الطبقات في الولايات المتحدة أضعف منها في أى بلد آخر . ولذلك فإن العامل الذى يجد نفسه لآى سبب من الأسباب قد أصبح مليونيرا لا يشعر بأنه غريب في وسطه الجديد، وهذا على عكس ما يحدث في إنجلترا أو في فرنسا . ذلك أن كثيرا من الاغنيا . لا يمتازون عنه علما في الواقع فهو يرى أنه في مستواهم من حيث التعليم وأساليب السلوك فإذا اختلط بهم لا يشعر بأنه قد دخل في عالم غريب يختلف كثيرا عن العالم الذى عاش فيه . وبما يؤكد عدم وجود هذا الشعور أن الناس في أمريكا ينظرون إلى المراكز بوجه عام على أنها « مؤقتة » فالغنى اليوم قد يفلس غدا، والفقير اليوم قد يصبح غنيا . والخدم والمستخدمون ينظرون إلى من يستخدمونهم نظرة فيها شعور بأنهم قد يساؤونهم في يوم من الأيام . وعلى ذلك فإن النعرة الطائفية التى تظهر بوضوح في بلد ظل يحتفظ بالروح الارستقراطية كإنجلترا، لا وجود لها بتاتا في أمريكا . ومن هذه الناحية قيل عن الولايات المتحدة أنها تلبس ثوب مجتمعات بدون طبقات بالرغم من بعد الشقة بين صاحب آلاف الملايين ، ملك القطن أو ملك البترول، وبين العامل البسيط .

رغبة الطبقة الدنيا في الارتقاء :

يتوق كل إنسان إلى تحقيق السعادة لنفسه وهو يحاول تبعاً لذلك إحداث تغيير في حالته إذا كان غير راضٍ عن الحالة التي يعيش فيها . فمن الأمور الطبيعية إذن أن ترغب الطبقات المحرومة في التمتع بنفس المزايا التي تتمتع بها الطبقات الممتازة التي تثير إعجابها أو حسدها . ولذلك نراها قد حاولت في جميع العصور أن ترقى بنفسها في مدارج الحياة الاجتماعية مستعينة على ذلك بالوسائل التي تكون في متناول يدها وقد تتخذ هذه المحاولات صفة الجهود الفردية للوصول إلى الحرية أو الثروة أو ألقاب الشرف أو النفوذ أو تتخذ صفة الجهود الجماعية وحينئذ تتحول إلى كفاح مكشوف .

ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلاً كانت طبقة النبلاء هي المثل الأعلى في أعين البورجوازية . وليست مسرحية البورجوازي النبيل « Le Bourgeois gentilhomme » التي كتبها « موليير » هي الصورة الوحيدة التي تشهد بذلك . وكان رجال المال يشترون ألقاب النبيل ويدفعون من أجلها مبالغ كبيرة . وحين قامت الثورة الفرنسية وفتحت مجال الترقى إلى الرتب العليا في الجيش أمام أفراد الطبقات الشعبية بعد أن حرمهم قانون سنة ١٧٨٨ ، الرجعى من ذلك الحق أصبح

الانخراط في سلك الجندية يحقق بالنسبة للكثيرين ما تحققه ألقاب النبالة . ولم تكن النبالة العسكرية التي خلقها نابليون حين منح قواده ومرشالاته لقب « الأمير ، أود الدوق ، أود الكونت » ، لم تكن هذه النبالة العسكرية في الواقع إلا إقراراً رسمياً لنزعة موجودة في نفوس الناس وأهلاً يرادوا خواطرم قد صيغ في شكل قانون .

وفي أيامنا هذه « ينظر العامل المتوسط — كما لاحظ على الخصوص « هنرى دى مان Henri de Man » إلى معيشة الطبقات المالكة على أنها نوع أرقى من المعيشة » ؛ ولذلك فهو يكافح هذه الطبقات للحصول على أجر أكبر وحظ أوفر من الرفاهية أو لاكتساب حقوق سياسية ، ويتخذ هذه كلها وسائل لكي يقرب حالته من حالتهم . وهو غالباً ما يعمل جهده لكي يجعل من أولاده « بورجوازيين » ، وذلك بتوجيههم إلى المهن الحرة كالمهندسة أو الطب أو المحاماة بدلا من تدريبهم على احتراف صنعته .

هذا الجهد الذي تبذله الطبقات الدنيا للتحرر من الخضوع والتبعية حين تكون مضطهدة أو للتساوى بالطبقات الأعلى حين تسنح لها الفرصة لتحقيق آمالها — هذا الجهد تزداد فرص نجاحه بدون ثورات أو أزمات كلما كفت الطبقات العليا يدها عن إثارة

( ٩٩ )

العقبات في وجهه ، وارتضت عن طيب خاطر التنازل لهذه الطبقات المحرومة عن بعض الحقوق يحدوها في ذلك الفهم الحقيقي لمصالحها . وقد كان تطور رق الأرض في فرنسا مثالا لهذا التحول الوئيد .

ففي خلال حكم ملوك الفرنجة <sup>(١)</sup> كان امتلاك العبيد قائماً كما كان هناك رقيق الأرض بمعناه الحقيقي . ولكن حالة العبيد في « جرمانيا » حسب ما يرويها لنا المؤرخ الروماني « تاسيت Tacite » كانت كبيرة الشبه بحالة المزارعين الأحرار في النظام الروماني « Les colons romains » : فكان العبيد يسكن كوخاً مستقلاً ويزرع الأرض لحساب سيده .

ويبدو أن الجرمان كما يقول جيزو لم يفهموا جيداً — حين انتقلوا لزراعة الأرض الرومانية — لم يفهموا الفرق بين حالة المزارعين الأحرار والعبيد . وما أعاقهم عن هذا الفهم أن الفروق في الوضع القانوني لهاتين الطبقتين كانت طفيفة لا يمكن تقديرها بدقة إلا بالاستعانة بالتشريعات المحكمة وفي ظروف اجتماعية

---

(١) La période franque : من اسم هذا العهد اشتقت فرنسا

اسمها الحالي وقد كانت قبل ذلك حتى الغزو الروماني تسمى إقليم الغال .

( المترجم )

(١٠٠)

متقدمة . ولهذه الاسباب اختلط عليهم التمييز بين حالة العبيد وحالة المزارعين الأحرار ، وأدجوا الفئتين في طبقة واحدة هي طبقة رقيق الأرض .

وقد أفاد العبيد من هذا الخلط وخسر المزارعون الأحرار على العكس من جرائه . فقد كان المزارع الحر يدفع عادة إلى مالك الأرض جملاً ثابتاً لا يمكن أن يزيد أو ينقص ، ولكن أضيف إلى ذلك ضريبة الرأس التي كان يدفعها للدولة حسب تقديرها كما هي الحال بالنسبة للضرائب التي ندفعها اليوم . وحين حل سيد الأرض محل الدولة تعين على رقيق الأرض أن يدفعوا له ضريبة الرأس هذه ، وتحولت فيما بعد إلى الضريبة العقارية التمسفيه *la taille* التي ظلت تفرض على أفراد الشعب حتى قيام الثورة الفرنسية .

وبما أساء كذلك إلى المزارع الحر حين اختلط برقيق الأرض أن العادة المتبعة كانت تحرم على رقيق الأرض أن يتزوج بدون موافقة سيده . وذلك لأنه إذا تزوج من حرة أو من فتاة تخضع لإقطاعية أخرى فإن الأولاد الذين يأتون ثمرة لهذا الزواج قد يفلتوا من استغلال سيد الإقطاع ؛ فنزل هؤلاء الأولاد لا يعدون رقيقاً له بحكم القانون إما لأنهم يتبعون حالة أحد والديهم إذا كان حراً ، وإما لأنهم يصبحون رقيقاً لسيد آخر .

(١٠١)

إن حالة الخضوع المطلق هذه هي التي حاول رقيق الأرض أن يتخلصوا منها . فبدلوا جهوداً للتخلص من أعباء السخرة والضرائب التي تفرض عليهم فرضاً تعسفياً ، ومن الإقامة الإجبارية ، وليظفروا بحقوقهم في حرية اختيار الزوج وحرية التصرف في الميراث . وقد سهل لهم الوصول إلى هذه الأهداف عاملان أساسيان : حاجة أمراء الإقطاع إلى المال ، وخوفهم من إفقار إقطاعياتهم من السكان . ويمكن أن نضيف إلى هذين العاملين بعض البواعث الدينية .

أما عن الحاجة إلى المال فقد دفعت الأمراء بل والمملك نفسه إلى بيع الحرية لمزارعي الأرض الذين لا يملكون حق التصرف المطلق في ميراثهم *les mainmortables* (١) .

فمنذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر صارت الكنائس وكذلك الأمراء يمنحون أو يبيعون عقود التحرير . وكان أمير الإقطاع يتعرض في غالب الأحيان للعسر والضيق المادي إذ يضطر إلى إنفاق مبالغ كبيرة للإصلاحات التي يجريها على

---

(١) *La mainmorte* نظام من نظم الإقطاع يقضى بعدم تصرف المزارعين في أراضيهم إذا لم يكن لهم أولاد . كما كان هناك بعض الأملاك التي يحرم انتقالها من مالك إلى آخر كالتؤسسات الدينية والمستشفيات مما يجعل هذا النظام عبيراً  
( المترجم )

قصره حتى يظل في حالة لائقة ، وهو بعد ذلك يواجه أسرته الكبيرة ونفقات خدمه وتابعيه ونفقات حرسه الخاص ، كما كانت تقاليد الضيافة والحفلات والاستقبالات التي ينظمها من آن لآخر ترهق كاهله . وبينما كان الأمير في هذه الحالة من العسر كان المزارع من رقيق الأرض على العكس يثرى من بيع محصولاته . ولذلك فقد استغل الأمراء والمملك رغبة هؤلاء الأرقاء في التحرر لكي يعمر واخزائهم بالمال ، وقد اضطروا لتحقيق هذه الرغبة تحت ضغط التحسن العام الذى طرأ على حالة الفلاحين والأهمية المتزايدة التي أصبحت لسكان الريف . وعلى ضوء هذه الظروف نستطيع أن نفسر القرارات المتعددة التي صدرت لتحرير الأرقاء Actes d'affranchissement ، وأهمها القراران اللذان أصدرهما « فيليب الجميل Philippe le Bel ، في سنتي ١٢٩٨ و ١٣٠٢ ، وقرار « شارل دى فالوا Charles de Valois ، وقرار « لويس لوهوتان Louis le Hutin ، في سنة ١٣١١ ، وقرار « لويس لوهوتان في سنة ١٣١٧ . وقد أعلن الأمر المشهور الذى وجهه « لويس لوهاتان ، إلى قاضى « سنليس Senlis ،<sup>(١)</sup> « إن الحق الطبيعى يحتم أن يولد كل إنسان حراً . ولكن الملك كما لاحظ « جيزو ، لم يكن لديه مثل هذه الحماسة في إعطاء الحرية للأرقاء بل أراد أن يساومهم عليها

(١) بلدة صغيرة في شمال شرق باريس .

(١٠٣)

لمصلحة الخزينة . ومع ذلك ، فيما لا شك فيه أنه كان مقتنعاً بوجود إعطاء هؤلاء الأرقاء الحرية وإن تم ذلك عن طريق البيع ، وبما لا شك فيه كذلك أن هؤلاء الأرقاء قد توفرت لديهم وسيلة شراء هذه الحرية .

أما السبب الثانى الذى ساعد على التحرر التدريجى لأرقاء الأرض فهو خوف صاحب الإقطاع من أن يصبح يوماً فيرى إقطاعيته ، وقد خلت ممن يعملون فيها كما أنه كان يرغب تجنب القضايا الطويلة أمام المحاكم لإثبات حقوقه التى كانت تتناقض يوماً بعد يوم . وقد غدا من الميسور أن ينتقل رقيق الأرض من إقطاعية إلى أخرى وتعذر على صاحب الإقطاع إذا وقع ذلك أن يحصل على إذن رسمى بطرده من محل إقامته الجديد وعودته إلى مكانه الأول . ومن جهة أخرى فقد كان كل سيد يرى نفسه مفتقراً إلى أرقاء لاستغلال إقطاعيته يحاول أن يجذب إلى أرضه عمال الإقطاعيات المجاورة وذلك بإغرائهم بمزايا وحقوق خاصة . وهكذا انتهى الأمر إلى تحرير رقيق الأرض كوسيلة لمنعهم من تركها ولاجئناهم من الإقطاعيات المجاورة للعمل عند من يمنحهم حقوقاً أكثر .

يضاف إلى هذا أن تحرير الأرقاء كانت تمليه فى كثير من الأحيان دوافع دينية . فكلنا يعلم أن العصر الوسيط امتاز على

وجه الخصوص بقوة العقيدة، وحرص الناس على العمل للسعادة الأبدية . ولم تكن عواطف الإحسان المسيحية غريبة على قلوب أصحاب القوة والنفوذ ، بل كانت لديهم نفس الرغبة في استشعار فكرة الإحسان التي جاءت بها المسيحية واكتساب المغفرة على ما اقترفوا من ذنوب وخطايا ، وذلك بالعطف على الفقراء أو تحقيق العدالة بينهم . وكانت تلك الرغبة تستولى عليهم وهم على فراش الموت وعلى أهبة المشول بين يدي الله الذي يحاسبهم على ما قدمت أيديهم . وبما يحضرنا في هذا الصدد ما قام به لويس السابع أثناء مرضه فقد حرر من جميع قيود العبودية وإلى الأبد جميع الأرقاء من ذكور وإناث وهم الذين كان يطلق عليهم اسم « الخدم الخاص » ، وذلك في مدينة « أورليان » ، وفي نطاق دائرة قدرها عشرون كيلو مترا في محيطها . وفي إنجلترا كان عدد كبير من عقود التحرير التي صدرت في القرن الخامس عشر يستهل بصيغة دينية تذكر بأن جميع الناس أخوة وبأن المسيح قد صلب من أجل الجميع .

في ضوء هذه العوامل نستطيع أن نفسر كيف كان رق الارض يقل يوماً بعد يوم وكيف كانت حقوق السادة أصحاب الاقطاع على أرقائهم تضعف ضعفاً مطرداً .

خفت إذن وطأة الاسترقاق فاخترت في الاسترقاق الشخصي اختفاء يكاد يكون كلياً وهو ما كان يتعلق بالرقيق الخاص Serfs de corps الذي يلصق بالأفراد منذ ولادتهم ولم يصبح لهذا النظام أثر ابتداء من مطلع القرن الثاني عشر وذلك لأن الأيدي العاملة المسخرة أو المستعبدة كانت تنتج انتاجاً ضعيفاً . هذه الحال نفسها هي التي حملت الرومان على السماح للعبيد بتقديم فدية من المال يفتدون بها أنفسهم ثم دفعتهم فيما بعد إلى إحلال نظام الاستعمار le Colonat ،<sup>(١)</sup> محل نظام الرقيق وذلك باعطاء حق استغلال الأراضي للبرابرة الذين وقعوا في الأسر . وقد أخذت أعباء الرق تخف شيئاً فشيئاً من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر ولم يبق من آثاره إلا أثران أحدهما يتصل بقواعد الزواج le formariage والثانى بنظام انتقال الملكية la mainmorte . أما فيما يتصل بالزواج فقد ظل من المعمول به أن زواج الرقيق من امرأة حرة أو أجنبية عن الإقطاعية يقضى بأن تصبح رقيقاً مثله . وأما نظام الوراثة بالنسبة للأرقاء وهو الذى أطلق عليه اسم « la mainmorte »<sup>(٢)</sup> فقد كان يقضى بأن ما يملكه

(١) الاستعمار Le colonat فى معناه الأسمى نظام إنشاء الرومان تعطى بمقتضاه الأراضي التى كان يسكنها الأشراف لزراعين أحرار نظير جعل مدين يؤدونه إلى صاحب الأرض . ( المترجم )

(٢) معنى الكلمة الحرفى « اليد الميتة » وربما جاءت التسمية من غل اليد عن التصرف المطلق فى الأرض . أنظر هامش ص ١٠١ . ( المترجم )

الرقيق من عقار أو أشياء منقولة لا يمكن أن ينتقل بالوراثة إلا لأولاده المقيمين معه في الاقطاعية؛ فإذا لم يتحقق هذا الشرط انتقلت الملكية إلى أمير الاقطاع. وعلى ذلك فلم يبق من نظام الرق إلا هذا الشكل الذي كان يحتم بقاء الذرية في الأرض للاستمتاع بملكية أبيهم. وقد ساد هذا النظام في مقاطعات « بورجونى Bourgogne » و« فرانش كونتية Franche Comté » ولكنه لم يطبق على رجال الكنيسة أو معلمى المدارس أو المزارعين حسب ماورد على لسان « مارسيل ماريون » فى قاموسه عن « نظم فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر » (١).

وقد أصبح العرف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أن يوضح فى كل قرار خاص بفرض ضريبة أو بعمل من أعمال السخرة أنه لم يصدر عن ارادة « السيد » المتعسفة بل عن رغبته المتعقلة المتزنة *raisonable* ، ولم تعد هناك اقطاعية واحدة لاتحدد الالتزامات وتوزع الأعمال بروح العدالة على رجالها . واختفى « قانون التعقب Droit de poursuite » الذى كان يلزم الرقيق بأن يظل تحت طلب السيد وسيطرته فى أى مكان يذهب اليه، ولم تبق آثاره إلا فى حالة « الخدم الشخصى »، وحتى فى

---

(١) Marcel Marion : Dictionnaire des institutions de la France au XVII et XVIII Siècles.

(١٠٧)

هذه الحالة الأخيرة أصبحت المحاكم تأنف من تطبيقه، كما كان أمراء الإقطاع أنفسهم يتورعون عن المطالبة به. وقد كان القرار الذي صدر من برلمان باريس في ١٧ أبريل سنة ١٧٦٠ وأنكر على أحد الأمراء في مقاطعة « نيفرنيه Nivernais » حقه في الاستيلاء على ميراث أحد أتباعه بعد أن توفي في باريس — كان هذا القرار ضربة قاضية أطاحت بقانون التعقب .

لم تخف اذن وطأة الرق فحسب بل أنه أخذ يضمحل في فرنسا أبان النظام الملكي حتى أصبح ظاهرة نادرة. ومنذ القرن الثالث عشر وهو الذي اطلق عليه « عصر التحرير العام لطبقة الرقيق » لم يبق هذا النظام قائماً إلا في مقاطعات أربع وهي «المارش، و «أوفرنى، و «بوربونية، و «فرانش كونتية» ويبدو من هذه الأسماء أنه استمر في المناطق ذات التربة الفقيرة والمحاصيل القليلة كي يجبر الفلاحين على البقاء في أراض كانوا ينتهزون أول فرصة للهجرة منها. ولكن التقدم الذي تحقق في أساليب الزراعة في القرن الثامن عشر جعل هذا التحوط أمراً لا مبرر له. ولذلك فإن لويس الخامس عشر الذي اشتهر بطيبة قلبه وبرغبته الصادقة في اسعاد شعبه لم يتردد في إلغاء النظام البغيض الذي كان يحول بين الفلاحين وبين توريث أرضهم لمن يشاءون؛ كما ألغى الرق الشخصي في أملاكه وعبر عن أسفه لأن احترام نظام الملكية يمنعه من إلغاء «هذه الآثار السيئة لعهد الإقطاع الغاشم» في كل مكان. وقد تضمن هذه الإصلاحات

القرار المشهور الذى صدر فى أغسطس ١٧٧٩<sup>(١)</sup>. على أن الرغبة التى عبر عنها الملك فى أن يرى نظام الاستيلاء على أراضى الفلاحين بعد موتهم قد أختفى تماما من مملكته ، هذه الرغبة لم تكن قد تحققت بعد حتى عام ١٧٨٩ ( وهو العام الذى قامت فيه الثورة الفرنسية ) فقد بقى حتى ذلك الوقت عدد من الارقاء قدرهم دوق لاروشفوكو ، la Rochefoucauld ، بمائة وأربعين ألفا وقدرهم الأب كليرجيه ، Clergé ، بمليون وخمسمائة ألف ولكن الرقم الأخير فيه كثير من الغلو لانه صادر عن نائب من نواب طبقة الشعب .

هذه الرغبة ذاتها فى الارتقاء الاجتماعى وهذه الحركة نفسها التى أدت إلى تنازل الطبقات العليا والحاكمة عن كثير من امتيازاتها طوعا أو كرها هى التى ظهرت من قبل فى ارتقاء طبقة الدهماء les Plébéiens وحصولها على حق المواطنة . وقد تكلمنا عن هذه الحركة فيما سبق وهى التى تظهر اليوم فى تطور طبقة العمال وستسمح لنا الفرصة للكلام عنها فيما بعد .

### التجدد الضرورى :

إن الجهد الذى تبذله طبقة دنيا للارتقاء الاجتماعى قد يصبح يسيرا هينا بسبب اضمحلال طبقة أخرى أو بسبب بعض

(١) أى قبل قيام الثورة الفرنسية بعشر سنوات تماما . ( المترجم )

(١٠٩)

الضرورات التي تؤدي بها إلى اقتباس وسائل أخرى لحياة جديدة، ومن الأمثلة الواضحة التي تؤيد ما نقول ارتقاء طبقة الدهماء في روما والتقدم الذي أحرزته طبقة صغار النبلاء في فرنسا بعد حرب المائة سنة وارتقاء البورجوازية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى غير ذلك .

وقد لوحظ أن الأسر النبيلة الكبرى تندثر عادة بسرعة كبيرة وهناك شواهد تؤيد هذه الملاحظة في كل من التاريخ القديم والوسيط والحديث . ففي روما القديمة لم يأت القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت الأسر القديمة gentes قد قاربت الاختفاء وأصبح السناتور، يضم من أفراد الشعب أكثر مما يضم من الأشراف . وبالرغم مما كان ينص عليه القانون أصبح هناك في عام ١٧٢ قنصلان من الشعب وفي سنة ١٥٢ ثم في سنة ١٣١ ق . م أصبح هناك مراقبان من طبقة الشعب كذلك . وفي إنجلترا لم يبق إلا عدد قليل من النبلاء النورمانديين وهم طبقة الغزاة الفاتحين . وفي أواخر القرن التاسع عشر لم يكن أصل ثلثي اللوردات يمتد إلى تاريخ أبعد من عام ١٧٦٠ . ونلاحظ نفس الأمر بالنسبة للأسر القديمة في مقاطعة « برن Berne » بسويسرا وهي التي تنتمي إلى البورجوازية العريقة فقد كان عدد هذه الأسر في سنة ١٦٢٣ مائة واثنى عشرة أسرة فاصبحت في عام ١٧٩٦ ثمان وخمسين أسرة ليس غير . هذه الظاهرة

حتمت تدخل عناصر جديدة أورجال جدد *homines novi* ، كما يقول الرومان ، في الطبقات الحاكمة التي قضت عليها أحداث الزمن . فحين حصدت حرب الوردتين في إنجلترا وحرب المائة سنة في فرنسا طبقة النبلاء العليا يسرت بذلك الارتقاء الاجتماعي لعدد من الأسر لم تكن تطاولها في العراقة أو المجد وأدى ذلك إلى تكوين طبقة جديدة من صغار النبلاء .

والمطلع على التاريخ يرى قانون التجدد هذا ضرورة فرضت نفسها على مختلف الجماعات الانسانية ، سواء أكانت قبائل أو مدنا أو دولا ، وذلك حين تجدد نفسها معرضة بسبب حوادث التاريخ إلى التناقص في العدد أو الافتقار إلى الأكفاء من الرجال أو إلى المتخصصين في الميادين المختلفة أو إلى العمال المدربين . فتناقص نسبة المواليد أو الهجرة أو الحروب أو الأوبئة أو الثورات كل هذه عوامل تضعف من حيوية الدول بشكل ملحوظ وتدفعها إلى البحث عن الوسائل الكفيلة بتعويض خسائرها . ولذلك لا يدهشنا أن نرى بعض الطوائف الاجتماعية وخاصة الطبقات الأرستقراطية تلجأ عن رغبة أو عن حاجة إلى ضم بعض الأعضاء الجدد إليها لتدعيم قوتها . وقد حدث ذلك للهنود الحمر إذ لجأوا إلى التبنى حين وجدت بعض القبائل أن عددها يتناقص كما أن أمراء الاقطاع أخذوا — كما بينا من قبل — يحاولون اجتذاب رقيق الأرض الذين يعملون في اقطاعات مجاورة إلى أراضيهم

كذلك أخذت المراكز الكبيرة والمدن الحرة تفتح أبوابها للاجئين من العبيد وأعلنت أن كل من يحتذى في أراضيها منهم يصبح حراً طليقاً بعد مرور عام ويوم على استقراره فيها . ولذلك أصبح من الأقوال التي جرت على الألسن « أن جو المدينة يمنح الحرية ، وقد لجأت روما إلى بعض الوسائل المماثلة بعد أن أنهكتها الحروب المتصلة ضد قرطاجنة وسببت لها خسائر فادحة في الرجال ؛ وأدى بها حرصها على الاحتفاظ بقوتها العسكرية إلى منح حق المواطنة للايطاليين والسكان الأقاليم كما أعطت حق الانتخاب لكثير من العناصر الأجنبية بعد أن حررتهم وكانوا قبل ذلك أسرى حرب جلبهم الجنود إلى روما بعد غزو أراضيهم وأخضعوهم لنظام الرق .

وقد نهلت أسباب مماثلة دخول طبقة الشعب في مجلس « السنتاتو » وحين تقلد أحد أشرف روما وهو « ايبوس كلوديوس كوكوس Appius Claudius Coecus » منصب القنصل في سنة ٣١٢ أخذ يعارض في قبول أحد من أفراد الشعب في هذا المنصب كما عارض مطالبة طبقة الشعب بالمساواة في الحقوق الدينية . ولكنه مع ذلك عمل على قبول عدد من أبناء العبيد المتحررين أعضاء في السنتاتو بشرط أن يكونوا مالكيين للنصاب القانوني وأدخل في عداد المواطنين عدداً من السكان الذين كانوا لا يملكون ملكية عقارية واحتمال على ذلك بمنح أصحاب الملكية المنقولة حقوقاً مساوية لحقوق أصحاب الملكية العقارية فحق بذلك إصلاحاً

اجتماعيا يمكن مقارنته باصلاحات « كلستين clisthène » وبريكليس في أثينا وباصلاحات « دنيس » و « أرختياس » في سيراكيوز . وقد حاول بهذه الاصلاحات أن يعدل التنظيم الطبقي الذى كان قائما على سيادة الأشراف بحيث يتلائم مع الحالة الاجتماعية الجديدة وأن يضفى الصفة الشرعية على التطور الذى تم بالفعل فى العرف والعادات بحيث يمكن أن يستغله لصالح الدولة . فى الوقت الذى أخذت الثروة فيه تحتل مكانها إلى جانب عراقة الأصل وتحاول أن تتفوق عليها أدرك هذا المصلح قيمة القوة الجديدة التى أخذت تتركز فى أيدي عدد من أفراد الشعب من يملكون الثروات المنقولة ولذلك فإنه لمكى يحتفظ للأشراف بممارسة السلطان حاول أن يضع بجانبهم « زملاء » من خيرة أفراد الشعب وذلك بضمهم أعضاء فى مجلس « السناتو »

فاذا انتقلنا إلى محيط طبقة النبلاء فى فرنسا وجدنا نزعة مشابهة للتجديد وإدخال عناصر جديدة فيها وخاصة بعد أن قفى عدد كبير من أفراد هذه الطبقة فى المواقع العديدة أثناء حرب المائة سنة . فتكونت طبقة جديدة من النبلاء فى القرن السادس عشر وهو العصر الذى بدأ فيه اصلاح مساحات شاسعة من الأراضى وتطهير كثير من الغابات لاعدادها للزراعة فظهر أثر ذلك فى حال الفلاح الذى أثرى وأصبح كما يروى لنا « كاود هاتون Haton » يرى حظيره وقد غصت بالمواشى وامتلات أصواته (جمع صوان)

بالملابس ومنزله بالأثاث الفاخر مما أضفى عليه سمة النبلاء . وحينئذ أخذ النبلاء الذين يقتضى مركزهم أن يكرسوا أنفسهم وأملاكهم لخدمة الدولة أخذوا يبحثون عن وسيلة لجلب المال اللازم لنفقاتهم ولخدمة الملك ، فلم يجدوا خيراً من اصلاح أراضيهم والعناية بالزراعة ؛ بل أنهم لجأوا إلى بيع محاصيلهم بأنفسهم فى الأسواق . فتكونت بذلك نواة طبقة جديدة من نبلاء الريف *Gentilshommes Champêtres* كانوا يكرسون ربع العام لخدمة الملك كما كانوا يقرلون حينئذ ، أى أنهم كانوا يقومون بواجبهم نحو الملك ثلاثة أشهر من السنة ويتطوعون كذلك فى الجيش فى زمن الحرب ويقضون بقية العام فى ممارسة الزراعة والتجارة . فغدوا بذلك — حسب قول سفير البندقية ميشيل سوريانو *Michel Suriano* ، مصدر القوة الأساسية لمملكة فرنسا . ولكن لسوء الحظ اصطدمت هذه الطبقة الارستقراطية فى كفاحها الجديد بتعننت ممثلى طبقة الشعب وأنانيتهم . فأدعى الفلاحون أن النبلاء ليس لهم حق ممارسة التجارة ، ورفض نواب الشعب فى مجالس الأمة طلب النبلاء الذين أرادوا الإثراء عن طريق ممارسة التجارة . وأعلن أحد النبلاء فى نورمانديا بقرار من البرلمان بأن حقه فى لقب النبالة قد سقط لأنه كونه ثروة عن طريق تربية العجول . فمن حق النبيل أن يستغل أراضيهِ ولكن ليس له أن يثرى عن طريق التجارة . وهكذا انتهى الأمر باعاقبة حركة التجديد هذه التى كان يمكن لو أنها استمرت أن تؤدى الى التقريب بين الشعب والنبلاء وتحويل دون حدوث

الأزمة الاجتماعية التي أدت إلى نشوب الثورة الفرنسية . ولم يجد النبلاء مناصاً من الاحتفاظ بروح الطائفية التي كان يمكن أن تحتفي باندماجهم في المهن المختلفة بدلاً من اقتصرهم على صناعة الحرب ، ولا شك أن احتفاظهم بهذه الروح كان العقبة الكئود في سبيل تجدد المجتمع . وبما لاحظته « تكفيل Tocqueville » (١) في هذا الصدد أن روح الطائفية هذه لم يكن لها وجود بين الأرستقراطية الإنجليزية إذ كان النبلاء والسوقة منذ عدة قرون يختلط بعضهم ببعض في مهن واحدة وكان بعضهم يتزوج من بعض ويقومون بمشروعات واحدة حتى أصبح التمييز بين السوقة والنبلاء لا وجود له وأصبح لقب « جنتلمان Gentleman » يطلق في إنجلترا على كل إنسان . وقد أدت به هذه الملاحظة إلى القول بأن « نظام الاقطاع قد انتهى في كل مكان استقر فيه إلى خلق روح الطائفية فيما عدا إنجلترا فانه تحول فيها إلى الأرستقراطية » وكان من نتيجة ذلك أن ظل النبلاء الإنجليز يؤدون خدماتهم لصالح الدولة ويلعبون دوراً هاماً في الحياة السياسية على حين أن طبقة النبلاء في فرنسا باقتصارها على الفروسية

---

(١) تكفيل أحمد أساطين السياسة في فرنسا في القرن التاسع عشر (١٨٠٥—١٨٥٩) وقد اكتسبه نبيل أخلاقه وبعد نظره في السياسة تقدير الأحزاب المختلفة . أشهر مؤلفاته « الديموقراطية في أمريكا » — و « النظام القديم والثورة L'ancien Régime et la Révolution » . (الترجم)

(١١٥)

ظهرت في كثير من الأحيان بمظهر الطموح والمشاكسة وحب الشعب مما دفع ريشيليو ولويس الرابع عشر إلى انتهاج سياسة إبعادها شيئاً فشيئاً عن الحكومة .

### أهمية الخدمات التي تؤديها الطبقة :

والواقع أن ارتقاء طبقة من الطبقات يكون في العادة وثيق الصلة بالخدمات التي تؤديها هذه الطبقة وبدرجة التقدير التي يضيفها المجتمع بصفة عامة على هذه الخدمات . وللتدليل على قولنا هذا نستعرض الخدمات التي كان يؤديها نظام الإقطاع والكنيسة في مجتمع العصر الوسيط .

تكون نظام الإقطاع خلال قرون عديدة تحت ضغط حاجات اجتماعية ملحة ، إذ بدأت معالمة تلوح أثناء انحلال الإمبراطورية الرومانية وفي العصر الذي بدأت فيه هجمات البرابرة . وما لبث أن أتاحت له كل أسباب الازدهار أثناء الأزمات التي مرت بها أوروبا حين غزاها النورمانديون والمجر والعرب فخرّبوا قرأها ونهبوا مدنها . وحينئذ استعان كبار الملاك بما لديهم من أعداد كبيرة من العبيد والخدم فاستخدموهم في بناء القلاع المحصنة وكونوا منهم الجيوش المدافعة ووجدوا أنفسهم بذلك في حالة تسمح لهم ببسط حمايتهم على السكان في منطقتهم فأصبحت هذه الحماية مصدراً للنفوذ والسلطان في آن واحد . أما النفوذ فمرجه إلى الخدمات

التي كانوا يؤدونها للسكان والأهل الذي كانوا يعيشونه في نفوسهم في ساعات الخطر، والأمن الذي كانوا يضمون له لحياتهم المستقبلية؛ وأما السلطان فرجعه إلى تزايد قوتهم وثروتهم بفضل جهود كل من كانوا يلوذون بهم ويطلبون حمايتهم. وما لبث هؤلاء الأفراد الذين كانوا في الأصل من كبار الموظفين أو أصحاب الثراء أن أصبحوا د أمراء إقطاع Seigneurs féodaux ، . وأخذوا بعد ذلك يحيطون قراهم بالخنادق والحواجز المرتفعة ويقيمون مراكز يحرسها رجال مسلحون في الأماكن التي تزخر بالصوص وقطاع الطرق وكان من عادتهم إقامة مخبز عام يحضر إليه الفلاحون من الجهات القريبة لإنضاج خبزهم وكذلك إقامة البيعات والكنائس. وأن ما كانوا يرفلون فيه من نعيم ورخاء كان من نسج أيديهم إلى حد ما ؛ فما كان من الممكن أن يتحقق لولا ما قاموا به في أراضيهم من إقرار السلام والأمن الضرورين للعمل وذلك بفضل شجاعتهم ووضعهم لأسس العدالة الطيبة الحازمة . وعلى ذلك فإن خدماتهم التي لم يكن أحد يستطيع إنكارها في تلك العصور، بل لا يستطيع أن يستغنى عنها، هي التي كانت تبرر الامتيازات والحقوق التي حصلوا عليها .

ولكن بعد حكم لويس التاسع (القديس لويس) تغيرت الحال عما كانت عليها من قبل فانتعشت الزراعة وبدأت الصناعة في الظهور ونمت التجارة وأصبحت الحكومة الملكية هي التي تكفل

السلام والأمن العام . وحينئذ بدأ أمراء الاقطاع يفقدون سلطتهم ونفوذهم . إذ أخذ الناس يتحولون عنهم إلى الملك وأصبحوا ينظرون إليه كما ننظر نحن اليوم إلى الدولة . والواقع أن جهود الملك أصبحت تفوق جهود أمراء الاقطاع في حماية السكان وفي إقرار العدالة وفي الأخذ بناصر الضعفاء وفي إدارة الشؤون العامة وغدت رسوم المرور على الجسور « Péages » والرسوم التي تفرض على نقل التجارة « tonlieux » ورسوم الانتفاع الإجبارى بما يقدمه «السيد» من خدمات — غدت هذه الرسوم التي كان يفرضها رجال الاقطاع والتي كان يرتضيها الناس من قبل في مقابل الخدمات التي يحصلون عليها، عقبات في سبيل إزدهار التجارة واستغلال الأراضي الزراعية . و انتهى الأمر بأن أصبحت الحقوق والامتيازات التي يطالب بها أمراء الاقطاع لا تستند إلى ما يبررها .

ويمكن تفسير سيادة الكنيسة في العصور الوسطى بأسباب مماثلة . ويقول لنا « جيزو Guizot » في هذا الشأن أنه « على حين أن الحالة المعنوية للشعب كانت تنحط يوماً بعد يوم بسبب الاضطراب العام الذي ساد المجتمع كانت الكنيسة تتطلب من رجالها قدرأ أوفر من العلم والذكاء ومثانة الخلق وذلك بعد أن اتسع نطاق علاقاتها بالمجتمع المدني وأصبح مذهبها ونظامها أكثر تعقيداً وصعوبة » . ويمكن القول أن هذا النظام الكنسى الصارم

قد بدأ في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية . فبينما كان أعضاء المجالس البلدية *Les curiales* المنوط بهم أمر إدارة المدن يتسمون بالبلادة وثبوت الهمة، كان الأساقفة والقسس يقدمون أنفسهم ويتطوعون لمراقبة كل شىء وإدارة كل شىء مستمدين القوة من إيمان الناس بهم ومدفوعين فوق ذلك بروح الاقدام والحماسة . وحينئذ لم تتردد السلطة المركزية في الإفادة من هذا الموقف فاضفت الصفة الشرعية على تدخل الأساقفة في الشئون البلدية . ولذلك نجد أن قوانين ثيودوسيوس *Théodose* وجستينيان *Justinien* . تحوى عدداً من البنود التى تتصل بهذا الموضوع ، إذ خولت للأساقفة حق الاشتراك فى اللجان التى تشرف على المشروعات العامة ، التى تراقب حسابات المتعهدين فى كل ما يتصل بمستودعات المؤن والقنوات والحمامات العامة واستحكامات الدفاع التى تحوط المدن الخ . . وأخذ رجال الكنيسة كذلك يعينون بالاشتراك مع قاضى المدينة ، المربين والمثقفين للشبان فى مرحلتى الشباب الأولى والثانية ويختارون بالاتفاق مع أعيان المدينة وأعضاء المجلس البلدى والقضاة (*Duumvirs*) حماة المدينة (*Defensores civitatis*) وهم الفئة التى أوجدها فالنتينيان *Valentinien* الأول فى النصف الثانى من القرن الرابع وكانت مهمتها تنحصر بوجه عام فى مراقبة مندوب الضرائب ، والموظف الذى يحدد ما يدفعه كل فرد منها ، والقاضى ، أى أنهم

كانوا مكلفين بمنح التعسف وبحماية الشعب من تطاول الموظفين وخطرتهم ومن زيادة الأعباء الضرائبية ومن كل ظلم أيا كان مصدره . وهكذا نرى أن الظروف التي وجد فيها المجتمع اضطرتة إلى الالتجاء — حتى يحفظ كيانه وينجو من الانهيار — إلى أكفأ الناس فيه وأكثرهم إخلاصا وحماسا على الصالح العام مما أضفى على الطبقات الأكثر علما والأكثر نشاطا (وهي طبقات رجال الكنيسة) نفوذا ومكانة ميزتهم عن مجموعة أفراد الشعب . وهذه الظروف هي التي جعلت الملوك في العصور الوسطى بل وفي عصور تلتها ينتخبون في غالب الأحيان مستشاريهم وسفرائهم من بين رجال الكنيسة لأنهم كانوا يمثلون حينئذ أكثر الطبقات ثقافة وعلما . ومن أشهر من عرفهم التاريخ من هؤلاء « سوجيه Suger » و « ريشيليو Richelieu » و « الكردينال فلورى Fleury » .

على أن الحال قد تغيرت فضعفت سلطة رجال الكنيسة ونفوذهم بمقدار ما أصبحت الخدمات التي يؤدونها أقل ضرورة للمجتمع وذلك بسبب انتشار التعليم المتزايد الذي يرجع الفضل فيه إلى اختراع آلة الطباعة . كما أن تقدير الناس لهم أخذ يضعف نتيجة لضعف العقيدة في نفوسهم بعد أن أثرت فيها الحوادث المؤسفة التي أدت إلى الانقسام الكبير في الدين وإلى وقوف اثنين من البابوات أحدهما في وجه الآخر وتفرق المسيحية بينهما . ثم جاءت بعد ذلك حركة الإصلاح البروتستنتي وأعقبها سلسلة الجدل

العنيف المقيم بين رجال اللاهوت ، ثم المعركة التي نشبت في القرن السابع عشر بين أنصار « جانسنيسوس Le Jansénisme » ، واليسوعيين<sup>(١)</sup> وأخيراً قضى على هيبة الدين هجوم الفلاسفة<sup>(٢)</sup> في القرن الثامن عشر .

### مثال لطبقة تتدهور النبلاء :

يتيح تدهور طبقة من الطبقات ارتقاء طبقة أخرى في العادة . وعكس هذا صحيح فإن ارتقاء إحدى الطبقات تكون نتيجته بوجه عام الإسراع بطبقة أخرى إلى التدهور . ومن الطريف أن ندرس في هذا الصدد تطور طبقة النبلاء وطبقة البورجوازية في فرنسا . فنذ عهد شارلمان بل وقبل ذلك أى في عصر أسرة الميروفنجيين Mérovingiens ، كانت الخدمة العسكرية واجبة على كل إنسان حر له من الثراء ما يسمح له بالتسلح واعداد نفسه للحرب على نفقته الخاصة . وفي عصور الاقطاع كانت هناك تفرقة واضحة بين « أراضى النبالة » التي يجب على أصحابها أداء الخدمة العسكرية وبين أراضى السوقة Terres roturières التي كان يجب على محتلها دفع الضرائب أو القيام بأعمال السنخرة . غير أن هذا الوضع

(١) اشترك في هذه المعركة مع أنصار جانسنيسوس الذين عرفوا بجماعة بور رويال Port Royal ، ضد اليسوعيين ، الفيلسوف بسكال . (المترجم)  
 (٢) أمثال فولتير وديدرو ودالمبر (جماعة الإنسكوبيديا) . (المترجم)

(١٢١)

قد تغير ابتداء من القرن الثاني عشر وأصبح لكل اقطاعى الحق في مطالبة مزارعيه بواجب الدفاع. ولكن هذا الحق اقتصر على نطاق اقطاعيته وحين يهاجمها مهاجم أو تصبح قلعة الأمير مهددة . وقد نظمت لوائح التقسيمات الريفية ذلك الواجب الذى كان يتضمن قيودا وشروطا عدة . والذى يهمننا فى الأمر أن النبلاء وجدوا أنفسهم مضطرين لدعوة السوقة لحمل السلاح فى أوقات معينة وكانت هذه الوظيفة خاصة ببطقة النبلاء من قبل . وجاءت الحروب الصليبية وغزو النورماندين لانجلترا فتضاعفت الحاجة إلى أفراد الشعب فى ميادين القتال . وعندما تم تنظيم المدن إلى وحدات صغيرة آخر الأمر ، نشأت الميليشيا المحلية *Milices* التى تتكون من حفظة الأمن تحت قيادة ضباط البلدية ، ولم تعد كما كانت من قبل تحت قيادة مندوب أمير الاقطاع . وعندما أوقفت الحكومة الملكية حركة الانقسام إلى وحدات محلية وضع رجال الميليشيا تحت رقابة مندوبين ملكيين ( أطلق عليهم حسب قول « بوتاريك Boutarie » اسم مندوبى الحرب أو « المختارين élus » ) . وغدت الميليشيا على هذا النحو أهم العناصر التى يعتمد عليها فى الدفاع الوطنى وأسهمت إسهاماً مرموعاً إبان حكم فيليب أوجست Philippe Auguste فى احراز النصر فى موقعة « بوفين » . ومنذ ذلك الحين ظهرت بوادر التطور الذى كان له شأن حاسم فى تقرير مصير النبلاء إذ لم يعد للنبلاء الحق وحدهم دون غيرهم

(١٢٢)

في حمل السلاح وأصبح من الممكن في الوقت نفسه أن يرتقى السوقة إلى مرتبة النبلاء عن طريق التفوق في أعمال الفروسية .

ثم وجهت إلى طبقة النبلاء ضربة أخرى قاصمة حين قرر شارل السابع إنشاء جيوش دائمة؛ وترتب على هذا القرار أن أصبح الملك يستطيع دعوة رعاياه مباشرة لحمل السلاح حين يذهب للحرب بدلاً من الالتجاء إلى وساطة رجال الإقطاع كما كان يحدث من قبل . وأصبحت له فرق خاصة من الفرسان والمشاة وجنود المراسلة والرماة .

وساعد إنشاء فرق الرماة على وجه الخصوص على إعداد كل رجل حر في الدولة لأن يكون جندياً وشعر الشعب بأنه حين يحمل السلاح يمارس حقاً من حقوقه وأخذ ينافس النبلاء في حفظ الأمن وفي الدفاع عن الوطن . وأخذ ضباط الملك يختارون الجنود من بين الرجال القادرين على تحمل أعباء الخدمة العسكرية ويطوفون بكل قرية لاختيار من يصلح فيها للجندي . وكان من يقع عليهم الاختيار يعفون من ضريبة الدخل ومن الأعباء الأخرى فيما عدا المساعدات التي يقدمونها للحرب وضريبة الملح gabelle ؛ فإن لم تكن هناك حاجة إلى دعوتهم لحمل السلاح ظلوا في قراهم يباشرون أعمالهم المعتادة . ويقول بوتاريك ولأنهم وإن كانوا قد قدموا خدمات قليلة في أوقات الحروب إلا أنهم مع ذلك كانوا النواة التي غدت فيما بعد فرق المشاة الفرنسية القوية . وقد حدد

(١٢٣)

قرار أصدره لويس الحادى عشر عددهم بستة عشر ألف جندى ينقسمون إلى أربع فرق كل منها يتكون من أربعة آلاف مقاتل تحت إمرة قائد عام .

ولم يجد النبلاء بدأ من الانخراط فى سلك الجيش العامل فوضعوا بذلك أنفسهم تحت إمرة الملك مباشرة . وكان كل من يشعر منهم بشيء من الطموح أو الميل إلى صناعة الحرب ينضم إلى فرق الحرس الملكى ، بل أن بعض صغار الشبان من النبلاء كانوا يضعون أنفسهم فى احتياطى الجيوش بوصفهم متطوعين ويظنون ينتظرون حتى يسمح لهم تطور الحرب وخلق بعض الأماكن فى الفرق المختلفة بالدخول فى سلاح الفرسان الملكى ؛ بل لم يأنفوا من الانخراط فى سلك الرماة الفرسان ومنهم من كان يشتري أحد هذه المراكز من أصحابها مما يشير إلى حرصهم الشديد على الاندماج فى سلك الجيش العامل . والواقع أن خدمة الملك كانت مصدر شرف وكسب فى آن واحد ولكن النبلاء حين أظهروا هذه المرونة وذلك الخضوع للنظام فقدوا فى الوقت نفسه استقلالهم بقبولهم الرواتب كفرسان فى جيش الملك وتعودا على أن ينظروا إلى الملك كمصدر للنعم والمنح .

ثم جاء اختراع الأسلحة النارية التى أخذت تتقدم فى اطراد وسرعة فأضعف ذلك كثيرا من شأن الفرسان المدرعين بدروع

الحديد كما أضعف من مقاومة القصور المحصنة التي أصبحت المدفعية تدكها دكا . وبدأ النبلاء يفهمون أن المشاة سيكون لهم الكلمة الحاسمة في المواقع ، ومن ثم فقد قبلوا أن يكونوا قواد الفرق المشاة بل ارتضوا كذلك أن يكونوا مجرد جنود فيها ليتدربوا على الأسلحة الحديثة . فترك « بليزدي مونلوك Blaise de Monluc » في القرن السادس عشر سلاح الفرسان ليدخل المشاة كما أراد « بونتيس Pontis » في القرن السابع عشر رغم كونه ضابطاً ، أراد أن يتعلم كيفية استخدام البندقية كجندي بسيط . على أن هذه المحاولات جميعاً لم تفلح في إخفاء الحقيقة وهي بدء اضمحلال طبقة النبلاء .

ويقول لنا بوتاريك مرة أخرى أن لويس الثاني عشر أدخل الطبقة النبيلة Gentilshommes في خدمة سلاح المشاة وقسم هذا السلاح إلى ألوية وعهد بكل لواء منها إلى عدد من النبلاء . وفي أثناء حكم فرانسو الأول وهنرى الثاني كان الشبان من النبلاء يتدربون على حمل السلاح اما بالخدمة كرامة في صفوف مساعدى الضباط أو بالخدمة في ألوية المشاة في رتبة تساوى رتبة الجاويش الحالية . ولكنهم في أواخر القرن السادس عشر عادوا يستنكفون من المرور بمراحل التدريب هذه وأدعوا لأنفسهم أنهم جديرون بالوصول دفعة واحدة إلى الرتب التي ما كانوا يحصلون عليها من قبل إلا بعد سنين طويلة في خدمة الجيش . وقد أشارت المذكرات

التي كتبت في ذلك العهد ومنها مذكرات « مونلوك Monluc » ومذكرات المرشال دى فييفيل De Vieilleville إلى عدم كفاية الأجيال الجديدة في شئون الحرب وإلى مقدرتها المحدودة كما وصف هذه الحالة أيضا دوينيه D'Aubigné في كتابه الطريف « بارون دى فونست »<sup>(١)</sup>. وكانت هذه الخبرة المحدودة وعدم الكفاية من الأسباب التي أدت إلى تدهور الجيش في خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر بعد أن كان أحد سفراء البندقية وهو ميشيل سوريانو الذي يحكم عن خبرة وحياد ينظر — قبل ذلك بقرن واحد — إلى طبقة النبلاء الفرنسية على أنها مصدر القوة الحربية لمملكة فرنسا .

ويبدو أن ذلك كان من العوامل التي أدت إلى السماح لأفراد طبقة الشعب بالوصول إلى رتب صغار الضباط . ولندكر أن ريشيليو أنشأ مدرسة لتدريب الجنود والوصول بهم إلى حالة من الكفاءة تمكنهم من قيادة غيرهم . وقد احتوى قراره الصادر في ١٦٢٩ على هذا البند وهو أن « الجندي يستطيع بمجهوده وتفانيه في الخدمة أن يرقى من رتبة إلى رتبة حتى يصل إلى رتبة رئيس الفرقة بل قد يصل إلى رتبة أعلا منها إذا أظهر استحقاقه لذلك » . وبالإضافة إلى ذلك فإن حاجة الجيش إلى مهندسين عسكريين جعله لا يتردد في انتخابهم من بين طبقة الشعب كما حدث

(١) Le Baron de Foeneste

في حالة سانت هيلير Saint Hilaire الذي كان ابن صانع أحذية. بل لقد كان يختار لهذه الوظائف أقل النبلاء جاها و ثراء وقد كانت هذه حال « فوبان Vauban » الذي كان يصف نفسه بأنه « أفقر نبيل في فرنسا ». وعلى هذا النحو أصبحنا نجد في القرن الثامن عشر كثيراً من أمثال « لازار كارنو Carnot » الذي صار ضابطاً في سلاح المهندسين دون أن يكون منتصباً إلى طبقة النبلاء كما كان أي فرد من أفراد الشعب يستطيع أن يصل إلى رتبة « الصاغ Major بل إلى رتبة البكباشي Lieutenant-Colonel ثم يقف عند هذا الحد فلا يستطيع تخطيه إلا إذا حصل على رتبة النبالة . وهكذا وقف النبلاء حيارى ينظرون في قلق إلى السوقة وهم يحتلون بإطراد أماكنهم في الوظائف الحربية التي ظلت مدة طويلة العامل الأساسي في نفوذهم وسطوتهم . على أنهم لم يكونوا في كثير من الأحيان يقومون بواجبهم على الوجه الأكمل . فقد شكوا فييار Villars في سنة ١٧٠٣ من أن الضباط من النبلاء لم يكن يستطيع البتة أن يألف « الخدمة المنتظمة » ، وكان عدد كبير من النبلاء في حاجة إلى التدريب وإلى الخبرة كما كان انسياقهم لحياة الترف سبباً في شيوع الفوضى . ويؤكد الثقة أن الهزائم التي مني بها الجيش الفرنسي في الحملات التي تمت في أواخر عهد لويس الرابع عشر كانت نتيجة حتمية لعدم كفاية الضباط النبلاء واستخفافهم بالأمور وغطرتهم .

ولست الأسباب التي ذكرنا وهي ارتفاع شأن المدفعية والأسلحة النارية واختيار الضباط من خارج طبقة النبلاء وقلة الخبرة وضعف الحماسة وعدم احترام النظام، ليست وحدها الأسباب التي غضت من الخطورة الاجتماعية لطبقة النبلاء من الناحية العسكرية بل يمكن أن يضاف إليها أسباب أخرى ليست أقل قيمة . وأهمها ازدياد السلطة الملكية وبدء العدالة الملكية في حصر السلطة القضائية لأمير الاقطاع في أضيق نطاق وعلى درج، وذلك بإنشاء البرلمانات والقيام بالمشروعات العامة على نطاق واسع دون الرجوع إلى أمير الاقطاع وإنشاء نظام مندوبي المالك في الأقاليم les intendants في عهد ريشيليو . فأصبح دور النبلاء يقتصر على الناحية العسكرية وأبعدوا عن جميع الوظائف الأخرى التي كانوا يضطلعون بها من قبل . وحتى فيما يختص بالوظائف العسكرية التي تركت لهم فقد وجدوا أن السوق بدأوا يراحمونهم فيها .

أما السبب الأخير في تدهور طبقة النبلاء فيرجع إلى الفقر الذي حل بهم . إذ لما كانت الجعول التي يتقاضونها من الفلاحين ثابتة لا تزدد بينما أخذت القوة الشرائية للنقود تضعف أصبح دخل الاقطاعي في تناقص مستمر في حين كانت الأثمان التي يبيع بها الفلاح حاصلاته في صعود مستمر . على هذا النحو حاق الخراب بكبار الاقطاعيين الذين لجأوا إلى الاستدانة للوفاء بالتزاماتهم ثم

اضطروا لبيع أراضيهم فاشتراها منهم رجال المال الذين أثروا عن طريق التجارة والسوقه بل والفلاحون أنفسهم الذين كانوا من قبل عبيد الأرض . واضطر النبلاء إلى البحث عن الثروة في البلاط الملكي وفي الجيش . وأصبحوا مفتقرين إلى عطف الملك لسكى يعيشوا بعد أن حرمت عليهم ممارسة أى حرفة تجارية . وقد تنازلت السلطات لهم عن شىء من دخل الكنيسة رغبة فى مساعدتهم . وقبيل نشوب الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ كان عدد كبير منهم غارقا فى الديون ، وبينما كانت طبقة النبلاء تتدهور على هذا النحو كانت طبقة أخرى ترتقى وتصعد مكونة نوعا جديدا من النبالة لا تقوم على الفروسية بل على قوة المال ونعنى بها طبقة البورجوازية .

#### مثال لطبقة ترتقى : البورجوازية

بينما كانت طبقة النبلاء يحرم عليها ممارسة جميع المهن فيما عدا الوظائف العسكرية كانت البورجوازية تحتل وظائف الإدارة والمالية والقضاء وبينما كانت جميع مصادر الثروة قد نضب معينها فى وجه النبلاء فيما عدا بعض وظائف البلاط التى احتفظ لهم بها كانت البورجوازية تثرى بجميع الوسائل والسبل .

وقد كتب « بوييه Bouillé » ، فى مذكراته أنه ، منذ قيام الجمعية الوطنية بطبقاتها الثلاث فى ١٦١٤ كانت فرنسا قد أسست

(١٢٩)

مستعمراتها في أمريكا وأنشأت المصانع الكبرى وجعلت أوروبا  
وجزءاً كبيراً من العالم يعتمد عليها في الصناعة فعم الثراء نتيجة  
لذلك؛ غير أنه لم يفد منه إلا أفراد الطبقات الشعبية لأن ممارسة  
التجارة والفنون الآلية أيضاً كانت حرمة على طبقة النبلاء وقد  
أدى ازدياد المال والعملة النقدية على أثر استغلال مناجم الذهب  
والفضة في أمريكا إلى زيادة فقر النبلاء . وأخيراً فإن ازدهار  
الحياة في المدن الكبيرة بسبب انتعاش التجارة والصناعة قد قضى  
عليهم بالخراب .

و حين ظفرت طبقة الشعب بتفوقها في الثروة على النبلاء  
وانصرفت بكيبتها إلى التجارة والصناعة أصبحت في حاجة متزايدة  
إلى مزيد من العلم والمعرفة وما لبثت حين أتيح لها ذلك أن تفوقت  
كذلك على النبلاء في المواهب والقدرات الشخصية وقد شهد بذلك  
المركيز دى بوييه الذى كان قائداً ممتازاً وأنصف بالذكاء ورجاحة  
العقل .

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى اضعاف طبقة النبلاء  
القديمة قيام نوع جديد من النبالة ليست لها الصفة العسكرية ولا  
تشارك مع الطبقة القديمة الا فيما تتمتع به من امتيازات  
وحقوق .

ف عندما أثرى أفراد الشعب عن طريق التجارة والصناعة أخذوا يتطلعون إلى ألقاب النبالة وما لبثوا أن وجدوا الفرصة سانحة لذلك حين أفتقرت الخزانة الملكية إلى المال فدفع ذلك الحكومة إلى بيع ألقاب النبالة . وقد حدث أن عدَّير بعضهم «كارون دى بومارشيه Beaumarchais» بأن نبالته ليست أصيلة فأجاب في سخريه لاذعة بأن النبالة من حقه ولا يستطيع أحد أن ينازعه فيها ما دام قد اشتراها بالمال . وبالإضافة إلى ذلك فإن وظائف القضاء Les magistratures كانت منذ حكم هنرى الرابع من الوظائف التى تشتري بالمال وكان امتلاكها يخول لأصحابها لقب النبالة<sup>(١)</sup> .

وقد أعفيت طبقة النبلاء الجديدة هذه من الخدمات التى كانت تقع على كاهل الطبقة القديمة وأهمها الخدمة فى الجيش فلم يكن لها إذن أى صفة عسكرية . وفى أول ديسمبر سنة ١٧٧٤ صدر قرار باعفائها من الخدمة فى صفوف «الميليشيا» (أو الحرس الوطنى) وكان اختيار أفراد هذا الحرس يتم عن طريق إجراء الاقتراع بين الرجال غير المتزوجين أو الأرامل الذين لا يحملون

(١) أصبح فى فرنسا فى القرن السابع عشر نوعان من النبلاء : نبلاء السيف Noblesse d'Épée وهم الذين حصلوا على اللقب بالوراثة ونبلاء «الروب» أو الرداء Noblesse de Robe وهم الذين حصلوا عليه بالمال . وكلمة «الروب» رمز إلى روب القضاء والحمامة . (المترجم)

(١٣١)

لقب النبالة أو ليسوا من رجال الكنيسة أو تقرر اعفاؤهم لأسباب أخرى كأن يكونوا من المدرسين أو من حراس الصيد أو حراس الغابات التي يمتلكها أمراء الاقطاع أو من خدم رجال الكنيسة أو النبلاء وفق شروط معينة الخ... وعلى هذا النحو تكونت طبقة جديدة استمعت بكل حقوق وامتيازات الطبقة القديمة من النبلاء وبررت ذلك بما تؤديه من خدمات تختلف في طبيعتها عن الخدمات التي كان يؤديها النبلاء وبررت ذلك بما تؤديه من خدمات تختلف في طبيعتها عن الخدمات التي يؤديها النبلاء قديما وأصبحت البرجوازية تتساوى مع النبلاء وأخذت في الوقت نفسه تحتل مكانها .

ولم يكن ارتفاع شأن البرجوازية وليد يوم وليلة بل أنه كان نتيجة لتطور استمر مدة طويلة وبدأت ترسم خطوطه إبان حكم أسرة «الكابسيين Le Capétiens» ، إذ يقول لنا لوشير Luchoire ، أن الطبقة البرجوازية منذ عهد «هيو كابت Hugues Capet» ، حتى عهد فيليب الأول لم تكن قد بلغت بعد من القوة درجة تشعر الملك بحاجته لطلب معونتها . ولكن اهميتها الاجتماعية أخذت في الصعود في خلال القرن الثاني عشر . ويقرر المؤرخون أن البرجوازية كانت ممثلة أثناء حكم لويس السابع في الجمعيات السياسية والمجالس الوطنية وعلى الأخص في المجلس الخاص للملك . ثم ظهر أثرها أكثر وضوحا إبان حكم فيليب

أوجست والقديس لويس وتمت آخر حلقات التطور الذي بدأ في القرون السابقة عند اجتماع الجمعية الوطنية التي عقدها « فيليب لي بل »، إذ أصبحت البرجوازية، التي تدعى للتمثيل في المجلس ولاسداء المعونة المالية، والنصح تمثل المرتبة أو الطبقة الثالثة في الدولة<sup>(١)</sup>.

وفي خلال حرب المائة سنة أخذت البرجوازية تلعب في النشاط الدبلوماسي دوراً كان من قبل مقصوراً على كرادلة الكنيسة. وظهرت أسماء بورجوازيين مثل « بيير أودون Pierre Odon » و« بونس أمات Pons Amat » و« برنارد فور Bernard Faure » كانوا حلقة الاتصال بين معسكري الأغداء من الانجليز والفرنسيين. وفي الوقت نفسه أخذ الملوك يفسحون للبرجوازيين مكاناً يزداد على الدوام اتساعاً في مجالسهم. وحين عهد شارل الخامس بالوصاية على وريثه القاصر إلى أخيه الثالث دوق بورجونيا وإلى صهره دوق بوربون وذلك ليحول بين دوق انجو الوصي الشرعي وبين الاستئثار بالسلطة، رأى أن يدخل في مجلس الوصاية عدد من البرجوازيين أمثال نيكولا دييوا وجان باستورل وغيرهم. واتخذ دوق بورجونيا من « فيليب الجسور Philippe le Hardi » وزيراً أول وهو من أفراد الشعب. وأحاط

(١٣٣)

شارل السابع نفسه — وهو الملقب بذي النعم Le Bien Servi بعدد من الوزراء من الشعب كما أدخل في مجلسه أفراداً من الشعب منهم : جاك كور Coeur والإخوة بورو Bureau ، وجان جوفنل Jouvenel ، وجيوم كوزينو Cousinot الخ... وهذا لويس الحادى عشر حذوه فلم يأنف من أن يقرب إليه صغار الناس مثل حلاقة، أوليفيه الغزال Olivier le Daim الذى شفق في عهد شارل الثامن . وفي القرن السادس عشر ارتقى بيير جانان الذى عرف باسم الرئيس جانان Jeannin بجهوده الخاصة إلى المناصب الرئيسة فى القضاء . وفي القرن السابع عشر أصبح نيقولا فوكيه Fouquet ناظراً للمالية وميشيل لوتليه Le Tellier وزيراً للحربية وكولبير المشهور Colbert . مراقباً عاماً للمالية . وانتهى صعود البورجوازية الذى أخذ يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم إلى « ذلك العهد الطويل لحكم البورجوازية الحسياسة » على حد تعبير سان سيمون الذى كان يشكو من تلك الحال كما انتهى إلى « طغيان طبقة الشعب » حسب تعبير دارجنسون

• D'Argenson

وتدين البورجوازية بهذا الارتقاء، الذى أوغر صدور النبلاء القدامى ؛ إلى ثرائها المتزايد وزيادة حظها من الثقافة . فقد تميز آخر القرن الثامن عشر بازدياد الثروة إلى حد كبير . وجمع أصحاب السفن وتجار الأقمشة وتجار المواد الغذائية وتجار السكاليات

والجواهرات ثروات ضخمة . وقد ظهرت آثار هذا الثراء والرخاء العام فيما حفلت به الموائد من فاخر الأطعمة، وما كان يلبسه القوم من فاخر الملابس والزينة، واقتناء الأثاث الثمين، وسكنى القصور الشائخة، والاهتمام ببناء الكنائس وتجميلها بأبداع النقوش؛ وكان التجار والمضاربون والمتعهدون على رأس من استمتعوا بهذه المتع. وقد كان من شأن الأهمية الاجتماعية التي حظت بها هذه الطبقة نتيجة ثرائها أن أعطت لآرائها وزنا يعتد به . كما أن ثراء الدولة الذى كان نتيجة لنشاطها، قد أكسبها ثقة الهيئة الحاكمة واحترامها. ولما كانت أنواع النشاط التي اضطلع بها أفراد هذه الطبقة تتطلب قسطا من المعرفة العلمية والثقافة فقد سهل لهم الثراء الحصول على بغيتهم . وأصبح يخرج من بين صفوفهم القضاة والمشرعون وموظفو الإدارة الملكية ومن بعدهم مراقبو شئون الدولة والوزراء : وقد أخذت هذه الطبقة الجديدة تستمد نفوذها من جلال الخدمات التي تؤديها للدولة كما كان يحدث قديما للنبلاء .

فلم يكن تطور البورجوازية إذن يشذ عن القاعدة العامة التي تقضى بأن يكون ما تتمتع به طبقة من الطبقات من سلطة ونفوذ يتناسب مع ما تؤديه من خدمات ولا بد أن يكون للثراء والمعرفة دور اجتماعى فى إدارة شئون الدولة . وقد تفاوتت قيمة هذا الدور بحسب الظروف والأحوال لأن المال والعلم قد يستخدمان فى الخير كما يستخدمان فى الشر: وحين تنعدم الخدمات التي يؤديها

(١٣٥)

القوم إلى المجتمع تصبح الثروة والمعرفة وبالا على أصحابها ، فبدلاً من أن تسهم في رقيهم وعظمتهم تهبط بهم إلى الخسيف . وليس أدل على ذلك من تدهور نظم الكنيسة والرهبنة في كثير من عصور التاريخ : فقد كان الرهبان الأوائل يسهمون في إصلاح الأراضي وزراعتها مع الفلاحين ويحفظون المستنقعات ويعيشون من نتاج عملهم الزراعي أو الصناعي ، وكانوا فوق ذلك يقومون بواجب الضيافة نحو المسافرين في وقت عزت فيه الفنادق ، وكانت فيه النزول لا يؤمن جانبها لما تحويه من الأشرار وقطاع الطرق ، وكانوا كذلك يقومون بواجب الإحسان إلى من يستحقون ، ويحاولون إيجاد عمل للعاطلين من أفراد الشعب بعد أن يزودهم بالإيمان والعلم . فلما انعدمت هذه الخدمات وحلت محلها الأديرة التي أتخمها الثراء من أموال الوصايا وهبات المحسنين وأصبح الرهبان في عزلة لا يهتمون بتعاليم الدين ، ونشرها بقدر ما يهتمون بجلب المنافع لأنفسهم والاعتراف في نعيم الحياة الزائف ، حينئذ تلاشى نفوذهم وسلطتهم التي كانا سبباً في جلب الثراء لهم وانتهم الأمراء الذين استهوتهم حركة « الإصلاح الديني La Réforme » فرصة انحسار الثقة عنهم فأنزعوا منهم أملاكهم وشتتوا فرقهم .

## فصل الرابع الطبقات والحياة السياسية

عاب « بيرك Burke » في كتابه « خواطر عن الثورة الفرنسية »<sup>(١)</sup> على الدستور الذي أنشأه رجال ثورة سنة ١٧٨٩ أنه نظم العلاقات بين الناس «دون أن يشير أية إشارة إلى ما يجب أن تكون عليه أحوالهم الخلقية أو السياسية أو يهتم بوضع نصوص تتصل بأعمالهم وأوجه نشاطهم وعواطفهم ومصالحهم» ، وعلى العكس من ذلك فإن القدماء — كما يقول — قد اهتموا أيما اهتمام بتمييز المواطنين في طبقات . وهذا في الواقع هو الفارق الأساسي بين وجهة نظر العصور القديمة ووجهة نظر العصور الحديثة فيما يتعلق بالطبقات . فالطبقات حقائق قائمة في كل مكان وزمان وغالبا ما تحكم الهياكل الحاكمة في صالح بعضها ضد البعض الآخر على الرغم من أن القانون في العصور الحديثة لا يعترف بالفواصل بين الطبقات . ولكن الأمر كان يختلف عن ذلك تماماً في العصور القديمة في اليونان وفي روما . ويمكن القول عن العصر الوسيط الذي كان يعترف بالمراتب *des Ordres* ، لا بالطبقات أنه ، كان مرحلة انتقال بين النظرة القديمة والنظرة الحديثة .

### اعتراف القانون بالتمييز بين الطبقات :

عرف العالم القديم نظام الرق الذى ألغاه وحرمه العالم الحديث وهذه الظاهرة وحدها تكفى لاقتناعنا بأن مدلول الطبقات أصبح فى نظرنا يختلف عما كان عليه عند القدماء . فقد كان المجتمع اليونانى أو الرومانى — إذا قصرنا الكلام على هذين المجتمعين — ينقسم إلى قسمين متميزين . المواطنون الأحرار فى جانب والعبيد فى جانب آخر . ولما كان هذا الوضع غير العادل مقبولاً لدى الجميع فإن مظاهر عدم المساواة الأخرى كانت بطبيعة الحال أقل إثارة لضمائرهم .

ثم ظهرت إلى جانب هذه التفرقة الأساسية تفرقة أخرى مصدرها خصوصية الدين وضيق حيز المدينة . ففى العصور القديمة كان لكل مدينة آلهتها وقد بلغ تعصب كل مدينة لآلهتها حداً جعل سقراط يحكم على نفسه بتجرع السم لأنه نشر بين الناس تعاليم شككتهم فى آلهتهم . ولم يكن يسمح للأجنبي المستوطن ولا لذريته حتى ولو ولدوا على أرض المدينة بأن يشتركوا مع المواطنين الآخرين فى آداب شعائر الدين مادام آباؤهم لا يحملون لقب المواطن . أما فى العصور الوسطى فلم يعد هناك شئ من ذلك بل أن الأجنبي — متى كان مسيحياً — كان يسمح له بأن يصبح قسيساً أو أستاذاً وكان البابا يعين رعاة الأسقفيات من الانجائز أو الفرنسيين أو الطليان دون تفرقة بينهم ، وفى أى بلد من البلدان . وجلس على

كرسى الاستاذية في باريس فيلسوفان أحدهما ألماني وهو «البير الاكبر  
Albert le grand» والآخر إيطالي وهو «توماس الاكوييني  
Thomas d'Aquin» .

وكان أثر الدين الخاص بالمدينة أكثر وضوحا في روما إذ  
يقول لنا فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges  
أن التفرقة بين العامة Les plébéiens والاشراف  
les patricians كانت تقوم في الأصل على أن العامة لم يكن  
لهم أسلاف يقومون بإداء الشعائر لآلهة المدينة . أما في أثينا فيبدو  
أن فوارق الدين لم تصل إلى هذا الحد بل كانت الفوارق أكثر  
ارتباطا بالجنسية وكان للأجانب فيها les métèques وضع  
خاص ؛ وربما كان ذلك راجعا إلى أن أثينا كانت تمارس التجارة  
أكثر من الزراعة على حين أن روما كانت تعيش في بادئ أمرها  
بصفة جوهرية على الزراعة .

وإذ تركنا العبيد والأجانب جانبا نجد أن أثينا قد عرفت تقسيم  
المواطنين إلى طبقات متميزة . ففي مقاطعة أتিকা Attique<sup>(١)</sup>  
كان أبناء الأسر العريقة وخدم أصحاب الحق في ممارسة النشاط  
الإدارى في الدولة وكذلك كانت الحال في اسبارطة . ولم تمنع النظم  
الديموقراطية من تقسيم المواطنين في كل مكان إلى طبقات متعددة

(١) ومى المقاطعة التى فى شمال شبه جزيرة البلونيز وعاصمتها أثينا .

بحسب الثروة . فكان في أثينا أربع طبقات أقرها سولون  
 بعد اجراء احصاء للسكان. تشمل الأولى من يملكون دخل  
 ٥٠٠ مدينوس<sup>(١)</sup> من القمح أو من المحاصيل الأخرى أو من يصل  
 دخلهم إلى ٥٠٠ دراخمة وكان يطلق عليهم لهذا السبب اسم أصحاب  
 الخمسمائة مدينوس Les pentacosiomédines . والثانية تشمل  
 من يملكون دخل ٣٠٠ مدينوس أو ٣٠٠ دراخمة ، ولما كان هؤلاء  
 يخدمون في سلاح الفرسان فقد أطلق عليهم اسم الفرسان  
 Les chevaliers . وكانت الطبقة الثالثة تشمل من يستطيعون  
 إطعام زوج من الماشية وقد أطلق عليهم لذلك اسم أصحاب الزوج  
 Les Zeugites « وكانوا يكونون معظم كتائب المشاة المسلحة  
 تسليحا ثقيلًا . أما الطبقة الرابعة فكانت تشمل الفقراء والمعدمين  
 Les Thètes في مقاطعة أثينا ، وكان هؤلاء لا يدفعون أية ضريبة  
 كما لم يكن لهم حق الانتخاب وكانوا يستخدمون عادة في الأسطول  
 كمجذفين . وقد كان أفراد الطبقتين الأوليين وخدمهم هم الذين  
 يستطيعون الوصول إلى مناصب القضاء ، أما رتبة رئيس القضاة  
 Archontat . فلم يكن يصل إليها إلا أفراد الطبقة الأولى دون  
 سواهم . على أن تقدم الديمقراطية أدى مع الزمن إلى تعديل  
 حقوق والتزامات هذه الطبقات ولكن التقسيم السابق في ذاته  
 ظل قائما .

أما في روما فقد كان التمييز قائماً بين المواطنين ذوى الحقوق الكاملة وبين المواطنين ذوى الحقوق غير الكاملة . وكان الأولون يتمتعون بجميع الحقوق المدنية (Cives optimo jure) كحق الزواج المطلق وحق الامتلاك (Connubium et Commercium) ، وبجميع الحقوق السياسية وأهمها حق الانتخاب والترشيح وحق الحصول على ألقاب الشرف (Jus suffragii et jus honorum) . أما المواطنون ذوى الحقوق غير الكاملة فقد كانوا ينقسمون إلى طائفتين: أصحاب الحقوق المحدودة Cives minuto الذين كانوا يتمتعون بحق الملكية دون أن يكون لهم الحق في الزواج من المواطنين ذوى الحقوق الكاملة وكان لهم حق التصويت دون أن يكون لهم حق ترشيح أنفسهم للانتخاب ولم يكن في استطاعتهم الوصول إلى مناصب القضاء أو مناصب رجال الدين . أما الطائفة الثانية فكانت تشمل المواطنين الذين يتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة دون أن تكون لهم حقوق سياسية Cives sine suffragio .

وكما قلنا من قبل تطورت الطبقات في العصور الوسطى وإبان النظام الملكي السابق للثورة الفرنسية إلى « مراتب Ordres » فأصبحت هناك مرتبة رجال الكنيسة le clergé ومرتبة النبلاء La Noblesse ومرتبة أفراد الشعب Les tiers-État . وكان لكل مرتبة وضعها السياسى والمدنى والضرائبى المتميز عن وضع المراتب الأخرى .

(١٤١)

فكان لفئة النبلاء قانونها المدني الخاص فيما يتعلق بنظام الوراثة : إذ بينما كانت الممتلكات الشعبية — سواء أكانت ملكا لأفراد من الشعب أو من النبلاء تنوزع بالتساوى بين جميع أبناء المالك كان هناك بالنسبة لأملاك النبلاء ما يسمى بحق الابن الأكبر *droit d'aînesse* ، وهذا الحق يميزه عن اخوته الصغار وعن اخواته البنات . ويؤول اليه بمقتضى هذا الحق شعار الأسرة وعلاماتها المميزة وألقابها واللوحات التي تمثل الأسلاف . كما كانت هناك امتيازات أخرى يكتسبها الابن الأكبر وتختلف من إقليم إلى آخر . فكان من العادات المتبعة في باريس أن يحصل على ثلثي الأراضى النبيلة وعلى القصر الرئيسى فى اقطاعية يختارها بنفسه . أما الأخوة الصغار والبنات فكانوا يكتسبون باقى التركة فيما بينهم بالتساوى .

وكان للنبلاء فوق ذلك حقوق تشريفية : منها تقدمهم على ممثلى الشعب فى اجتماعات الجمعية الوطنية وختم شاراتهم المميزة *Armoiries* بخاتم التاج بالنسبة لمن يحملون لقب « دوق ، أو « كونت ، أو « ماركيز ، أو « بارون » وبخاتم الخوذة بالنسبة للنبلاء غير ذوى الألقاب كما كانت لهم كذلك حقوق فيما يتصل بأراضى الصيد وأماكن تربية الأرانب البرية والحمام وحق وضع وردة الرياح فوق قصورهم ومنازلهم .

وتمتع النبلاء كذلك بامتيازات ضرائبية منها اعفاؤهم من الضريبة العقارية وما يتصل بها واعفاؤهم من أعمال السخرة بالنسبة لأشخاصهم واعفاؤهم من ضريبة الجملة على المحاصيل التي تنتجها اقطاعياتهم . وفيما عدا ذلك كانوا يسهمون في الأعباء الضرائبية الأخرى كما كانوا يكلفون بأداء خدمات عسكرية كانت تبرر اعفاءهم من الضريبة العقارية إذ كانوا يدفعون بدلا منها ضريبة الدم . وكان للنبلاء كذلك حق جباية بعض الأموال من السكان الذين يقطنون في أراضيهم .

ولم يكن نظام العقوبات كذلك واحدا بالنسبة للنبلاء وأفراد الشعب . فكان الجلد بالسوط لا يطبق على النبلاء وكان حكم الإعدام ينفذ فيهم بالمقصلة لا بالشنق كما كان يحدث مع السوقة وذلك فيما عدا بعض الحالات المزرية ، كالحيانة والسرقه والخنث بالعهد والتزوير وهي حالات كانت تؤدي بحكم القانون إلى فقدان لقب النبالة . وفي عهد وصاية دوق أورليان *Duc d'Orléans* أي في الوقت الذي أصدر فيه رجل الاقتصاد «لاس Law»<sup>(١)</sup> العملة الورقية اتهم أحد النبلاء وهو «الكونت دى هورن Horn» بأنه قتل أحد السياسرة فحكم عليه بتقطيع أوصاله حياً على عجلة

(١) اصطلاح على نطق (لاس) وهو اسم الرجل الذى أحدث انقلابا فى عالم المال بخروجه على قاعدة الذهب وتنفيذه لفكرته التى كانت ثورية فى هذا العهد وهى إصدار العملة الورقية والتعامل بها بدلا من العملة الذهبية (المترجم)

(١٤٣)

الموت وذلك بالرغم من أصله النبيل . ولكن الحالات التي نفذت فيها مثل هذه العقوبات على النبلاء كانت نادرة .

وفي مقابل تخفيف بعض العقوبات كان النبلاء يدفعون في حالة الغرامة ٦٠ جنيتها حيث كان أفراد الشعب لا يدفعون إلا ٦٠ صولدياً<sup>(١)</sup> .

ويذكرنا اختلاف العقوبات هذا بما كان عند الرومان فلم يكن يوقع على أعضاء مجلس الشيوخ ( السناتو ) إلا عقوبات النفي ومصادرة الأموال وذلك بالنسبة للجرائم التي كان يحكم فيها على أفراد الشعب بالإعدام . وفي مقابل ذلك كانت الغرامة التي توقع على عضو السناتو أعلى بكثير من الغرامة التي توقع على فرد من الشعب . وتأتي بعد امتيازات النبلاء امتيازات رجال الدين . وهؤلاء كان لهم الحق في الاستيلاء على عشر المحاصيل الزراعية من الفلاحين كل في دائرة اختصاصه وقد سميت هذه الضريبة بضريبة العشر La dime . وكان رجال الكنيسة يتمتعون بأنواع من الحصانة كما كانوا يتمتعون ببعض الاختصاصات القضائية وكانت هناك محاكم كنسية تختص بالفصل في المسائل المتصلة بالزواج وتنفيذ الوصايا وبذلك كان القانون الكنسي droit canon يتعدى على

---

(٢) كان الصولدي Sol في ذلك العهد يساوي جلم من الجنيه ، أى أن الغرامة التي كان يدفعها النبيل تعادل ٢٠ مرة ما كان يدفعه أفراد الشعب ( المترجم )

أحد الاختصاصات التي تدخل اليوم في نطاق القانون المدني droit Civil<sup>(١)</sup>. وفي نظير هذه الامتيازات كان رجال الكنيسة يقومون بواجبات هامة منها مساعدة الفقراء ورعايتهم والقيام بمهمة التعليم . . .

وأخيرا تأتي الحقوق الممنوحة لأفراد الشعب : فهؤلاء كان لهم الحق في الإثراء عن طريق التجارة وهو حق حرم على النبلاء كما أن الاختيار لوظائف الإدارة والوظائف القضائية العامة كان يتم من بين صفوف الشعب . وبذلك فتح أمام طبقات الشعب مجالاً للنشاط لم يكن النبلاء يدخلونه إلا إذا غامروا بضباع ألقابهم . فقد كانت صفة النبالة تسقط عن صاحبها إذا مارس التجارة . أو مارس حرفة يدوية باستثناء حرفة الأدوات الزجاجية : كما كان النبيل يفقد لقبه إذ قبل العمل في بعض الوظائف كوظيفة الكاتب أو الموثق أو رجل البوليس باستثناء وظائف موثق غرفة الحسابات وكتاب المجالس العليا . كما كان يفقد لقبه أيضا إذا استغل مزرعة للغير فيما عدا استغلال أراضي الأمراء أو الأميرات أو الاستمرار في ممارسة عقد موروث .

(١) يذكرنا ذلك بما كان قائما في مصر منذ وقت قريب من وجود المحاكم الشرعية واختصاصها بنظر قضايا الأحوال الشخصية . ولاشك أن إلغاء هذا الازدواج إنما هو إلغاء لنظام عتيق ولد في عصور الجهل . وكما قضت الثورة الفرنسية على هذا النظام في أوروبا قضت ثورتنا المصرية عليه في مصر . (الترجم)

يتضح مما تقدم أن المجتمع إذا كان قد أقر بعض وجوه عدم المساواة في الحقوق فقد كان غرضه الأساسي من ذلك مراعاة الفروق الطبيعية بين الناس واستغلالها إلى أقصى حد ممكن . وإذا كانت هذه النظرة قد اعتبرت هدفا مثاليا إلا أن تطبيقها كان يعرضها غالبا للانحراف بفعل الأهواء الانسانية ومع ذلك فقد استطاع المشرعون دائما أن يسترشدوا بما اصطلاح عليه المجتمع من إيجاد فوارق بين الناس . وقد ظهر أن هناك نوعين من الوسائل يتعين الأخذ بها لحفظ كيان المدينة والابقاء على الصفات المميزة للشعوب أو الفضائل اللازمة لسلامة الدولة وهذه الوسائل هي « الامتيازات » و « المحرمات » . من أمثال ذلك أنه كان يتحتم على النبلاء في العصور الوسطى - من حيث المبدأ - أن يزودوا أنفسهم بالسلاح والعتاد على نفقتهم الخاصة وأن يخرجوا للدفاع عن الوطن ولهذا السبب كانوا يعفون من ضريبة الرأس . إذ كانوا يسددون دينهم للوطن بتعرض حياتهم للخطر في الحروب وبانفاق أموالهم في خدمة الدولة . أما عن تحريم اشتغالهم بالتجارة والاثراء عن طريقها فقد كان المبرر له تعويدهم روح النزاهة والابتعاد عن الأغراض الشخصية وهذا التحريم ذاته يبرر اعفاءهم من بعض الضرائب إذ كان هذا الاعفاء ييسر لهم الاحتفاظ بمسكناتهم الاجتماعية والابقاء على ثروة كانوا ينفقونها عندما يدق ناقوس الخطر في الاستعداد للحرب وخدمة الدولة . ونستطيع أن نقع

على مبررات مشابهة لمبدأ «العزوبة» الذى فرض على القسوس ورجال الكنيسة .

نخرج من هذا المبدأ المثلثى بنتيجة هامة وهى أن الحقوق والامتيازات التى تحصل عليها طبقة من الطبقات يجب أن تبررها فضائل شخصية وخدمات تؤدى للدولة . فالصفات الممتازة التى يتحلى بها أفراد الطبقة ويستخدمونها لصالح الوطن والخدمات التى يقدمونها له فى اللحظات التاريخية الحرجة من شأنها أن تزيد من نفوذ هذه الطبقة أو تجعلها ذات نفوذ لم تكن تتمتع به من قبل . ويترتب على ذلك منحها بعض الحقوق ومظاهر السلطة التى كانت تحرم عليها حتى ذلك الحين . على هذا النحو كان انتصار الاغريق فى موقعة سلامين Salamine<sup>(١)</sup> التى أسهمت فيه الطبقات الشعبية الدنيا وهى الطبقات التى كان يجند منها عمال التجديف فى الأسطول - كان هذا الانتصار سبباً فى ازدياد أهمية هذه الطبقات فى الحياة السياسية وحصولها على حق الانتخاب الذى كانت محرومة منه من قبل . ويقول لنا أرسطو انه عندما انتصر شعب سيراكيوز Syracuse على الأثينيين كان من نتيجة ذلك إحلال النظام الديموقراطى محل النظام الجمهورى المطلق .

(١) الموقعة البحرية التى هزمت فيها أثينا أسطول الفرس فى عام ٤٨٠ ق م ( المترجم )

وبعد موقعة سيزيك Cyzique<sup>(١)</sup> التي انتصر فيها « السيداء Alcibiade ، على أهل البلوبونيز عادت أئتنا إلى دستورها القديم الذي نبذته بعد هزيمة حملة صقلية . ويلخص كورتيوس Curtius<sup>(٢)</sup> حق الشعب في جنى ثمرات انتصاراته بقوله « إن النظام الذي يحرم المواطنين الفقراء من الاستمتاع بكامل حقوقهم المدنية لبيدوا في الحقيقة ظلما فاحشا في الوقت الذي يقدم فيه البحارة أرواحهم ويحاربون دفاعا عن الوطن في شجاعة لم يسبق لها نظير » وقد تمت مثل هذه الانتصارات الشعبية بعد موقعة بلاتيه Platée<sup>(٣)</sup> .

#### النزعات السياسية للطبقات :

مهما كانت درجة التنظيم السياسي للطبقات وسواء كانت هذه منظمة أو غير منظمة من الناحية السياسية فان ذلك لا يمنع أن تكون لها أنواع من الطموح السياسي والاجتماعي .

(١) سيزيك Cyzique بلد قديم في آسيا الصغرى على بحر مرمرة (الترجم)

(٢) كورتيوس . هناك شخصيتان يعبر عنهما هذا الاسم الأولى اسطورية في روما القديمة . فقد سخر كورتيوس من العرافة والمانجمين حين أفتوا بأن الحفرة التي أحدثها أحد الزلازل في مسكان الفورم لانتئم إلا إذا وضع فيها أئمن كنوز روما . ولما كان كورتيوس يؤمن بأن قوة روما تكمن في سلاحها وشجاعته فقد اندفع بمصانة نحو الحفرة فالتأمت : أما الشخصية الثانية فهي مؤرخ الماني (١٨١٤ - ١٨٩٦) كتب مؤلفا قبا عن تاريخ اليونان ، ويبدو أن مؤلف الكتاب يشير إلى هذا الأخير . (الترجم)

(٣) ( بلاتيه ) موقعة هزم فيها بوزانياس واريتيد جيوش الفرس عام ٤٧٩ ق م . (الترجم)

وهذا ما يستخلص من ملاحظة الحركات الدينية الكبرى .  
 فالمسيحية التي بشر بها القديس بولس في المعابد التي انتشرت في  
 حوض البحر الأبيض المتوسط والتي كانت مصطبغة بالصبغة  
 اليونانية قد انتشرت بين الطبقات الدنيا من الشعب بين العبيد  
 وصغار الناس قبل أن تستجيب لها الدوائر العليا في المجتمع .  
 وكذلك اصطبغت البروتستنتية في فرنسا بالصبغة الشعبية وانتشرت  
 بين الصناع وذوى الحال المتواضعة مما جعل « باكلي Buckle » يكتب  
 أن الكاثوليكية كانت دين الأغنياء على حين كانت البروتستانتية  
 دين الفقراء . وقد برر ذلك بأن الكاثوليكية بما انطوت عليه من  
 مبدأ التدرج Hiérarchie قد وجدت صدرا رحيما بين الطبقات  
 الأرستقراطية . أما البروتستانتية فإنها بما كانت تدعو إليه من  
 التفكير الحر في نصوص الانجيل وتأويلها بحسب الاقتناع  
 الشخصي قد ارتبطت بنمو الروح الديمقراطية التي تدعو إلى  
 المساواة . وقد دعم السكاتب فكرته هذه بما بينه من تقدم مذهب  
 جانسنينوس وهو يقترب كثيراً من مذهب كالفن البروتستانتى<sup>(١)</sup>  
 قبيل الثورة الفرنسية وانحلال مذهب الجيزويت خلال حكم لويس  
 الخامس عشر وقد كانت الحال على عكس هذا تماماً خلال حكم

(١) مذهب جانسنينوس Le Jansénisme هو المذهب الذى ناهض  
 مذهب الجيزويت في القرن السابع عشر وكان من أنصاره الفيلسوف المشهور  
 بسكال — وللإلمام بتاريخ هذا المذهب اقرأ كتاب بسكال للدكتور نجيب بلدى  
 (سلسلة نوبيلة الفكر العربي — دار المعارف)  
 (الترجم)

(١٤٩)

لويس الرابع عشر حيث كان أنصار الجيزويت أقوياء بينما كان أنصار جانسنيوس مستضعفين مستعبدين .

ولم يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالاتجاهات والآراء السياسية والاجتماعية فقد لاحظ شيشرون روح المحافظة عند أفراد البورجوازية الصغيرة ( أو الطبقة دون المتوسطة ) . وقبل ذلك بثلاثة قرون تقريباً لاحظ أرسطو أن الطبقات الوسطى عامل هام من عوامل الاستقرار في الدولة . ولاحظ هيروديان تلك الملاحظة نفسها بعد ذلك بثلاثة قرون .

ولما كانت الآراء السياسية كالمعتقدات الدينية ذات صلة بحاجات الناس ورغباتهم وعواطفهم وأهوائهم كما أنها تتوقف إلى حد كبير على الحالة الاجتماعية والثقافة ونوع الحياة ومستواها لذلك نجدها تختلف بقدر قليل أو كثير من طبقة إلى أخرى . وقد لاحظ أرسطو أن عيب الطبقات الغنية هو « الزهو ، على حين أن عيب الطبقات الفقيرة هو « الحسد ، أو الانحراف أو الجهل . أما الطبقة الوسطى فإنها تمتاز بمرونتها وخضوعها للأوامر العقل . والحق أنه يصعب الاستماع إلى صوت العقل عندما يكون المرء متمتعاً بامتيازات غير عادية كالامتيازات التي يضيفها شرف المولد أو الثراء أو عندما يكون مصاباً بشعور بالغ بالنقص ينبجم عن الفقر أو الجهل . ومن ناحية أخرى فإن الطبقات العليا أو

المستنيرة تميل عادة إلى حب النظام ويدعم هذا الميل عندها رغبتها في الاحتفاظ بالامتيازات التي تنعم بها كما أنها تحسن اختيار الفرص والتصرف المعقول وذلك لفهمها الصحيح لظروف الحياة الاجتماعية وإلمامها الواسع الأكيد بالظروف التي تعيش فيها. أما الطبقات الدنيا فإنها على العكس من ذلك كما لاحظ « جيزو Guizot »؛ إذ غالباً ما تحركها الرغبة الجامحة في الإصلاح وإحداث الانقلابات الاجتماعية. وهذه الرغبة مردها إلى خليط من العواطف المتسلطة والأهواء الخبيثة التي تغذيها آراء غامضة وأفكار خيالية غير منسقة لكنها قوية عنيفة لأنها تستجيب لحاجات عاتية وتعد بأمال عريضة. وربما كانت معرفة هذه النزعات والميول الخلقية التي تتصف بها الطبقات الدنيا هي التي دفعت بالحكومات زمنات طويلة إلى إنكار حق الاقتراع أو التصويت على من يدفعون حداً معيناً من الضرائب كما أبعدت الطبقات الشعبية كذلك عن وظائف القضاء. وهكذا نرى أن طبقة الكادحين Prolétariens قد ظلت خلال قرون عدة يحكم عليها بأنها طبقة خطيرة لأن « الوحشية والعنف ديدنها وخلقها » كما يقول « فولابل Vaulabelle » في كتابه « تاريخ قترتي رجوع الملكية Histoire des deux Restaurations » ولأنها دائماً تخلق المتاعب والشغب. وأيد هذه النظرة ما حدث من إدخال الفقراء والكداحين في الجيش الروماني على أثر إصلاح « ماريوس Marius »، إذ نتج تدهور نظام الجيش فقد حدثت

عدة تمردات في صفوف المحاربين وقتل أحد القواد بيد جنوده الخ... وحين تحولت الجمهورية الأرستقراطية إلى جمهورية ديمقراطية على أثر موت الأخوين «جراكوس Gracchus»<sup>(١)</sup> كان ذلك بالنسبة لروما فاتحة عهد من الاضطراب والخلافات والحروب الداخلية التي تسببت في النهاية في قيام دكتاتورية «سيللا Sylla» .

ويقول لنا ارسطو في مؤلفه «دستور أثينا» إن مقاطعة «أتيكا» في القرن الرابع ق.م أبان عصر «صولون Solon» كانت تضم ثلاث جماعات من الشعب تكون ثلاثة أحزاب سياسية .

١ — البديون Les Pédiens<sup>(٢)</sup> أو سكان السهول وهم جماعة كبار الملاك ويكونون الحزب الأرستقراطي المحافظ .

٢ — الدياكريون Les diacriens<sup>(٣)</sup> وهم جماعة صغار الملاك من سكان المناطق الجبلية وعمال المرتزقة ويكونون الحزب الثورى .

(١) من أشهر أعضاء السناتو وخطباء روما الاخوان «تيريوس» و «كاوس» وقد قتل الأول سنة ١٣٣ والثاني في سنته ١٣١ ق.م بسبب مقاومتها لجنس الطبقة الارستقراطية التي أرادت الاستيلاء على معظم الأراضى التي انتزعت من العدو . (المترجم)

(٢) Pedios باليونانية معناها السهول . (المترجم)

(٣) كلمة مكونة من مقطعين dia بمعنى ثمة و acros بمعنى الجبال (المترجم)

٣ - الباراليون Paraliens<sup>(١)</sup> وهم سكان السواحل من البحارة والعمال الذين يعيشون من التجارة البحرية وكانت تجمعهم صفات تتطلبها طبيعة عملهم. وهى روح الاقدام التى لا تتراجع إزاء التغيير والتجديد، والاتجاه العملى والميل إلى التعاقد وروح التضامن التى توحد بين مصلحة كل فرد ومصلحة المجموع. وهذه الصفات جعلت من هذه المجموعة حزباً معتدلاً يستطيع أن يفهم وأن يتطلمع إلى التجديدات النافعة التى لا تتجاوز الحدود المعقولة كما تحددتها حكمة رجال الأعمال واتزانهم.

#### التصارع والنزاع بين الطبقات :

إذا كانت الطبقات وليدة تقسيم العمل الاجتماعى إلى حد كبير كان من الطبيعى أن تتعاون فيما بينها فى هدوء وسلام. ولكن اختلاف طرق تفكيرها وشعورها لاختلاف وسائل معيشتها يؤدى فى كثير من الأحيان إلى تعارض الآراء فيما بينها وإلى تضارب مصالحها مما قد ينجم عنه قيام بعضها فى وجه البعض الآخر كما يحدث فى أوقات الأزمات والثورات.

ففى روما مثلاً كان الفقراء يعيشون فى حالة غبن وضعة بالقياس إلى الأغنياء الذين كانوا فى أوقات الحروب يجدون تحت

(١) كلمة مكونة من مقطعين para بمعنى حول و alos بمعنى جزيرة (الترجم)

(١٥٣)

أيديهم من يتولى زراعة الأرض وفلاحتها من العبيد على حين كان الفقراء من أفراد الشعب يتحتم عليهم أن يتركوا حقوقهم جرداء حين يدعون لحمل السلاح . وكان الغنى في أيام المجاعات يستطيع شراء ما يلزمه من الحاجيات من البلاد الأجنبية أما الفقير فكان لا يستطيع أن يرد نفس المورد وحينئذ يقع تحت رحمة الغنى ويظل يستدين منه حتى يبيع له في النهاية نفسه ويصبح مولاه أو عبده .

وكانت فرنسا في ظل نظام الملكية القديم يسود فيها هذا النوع من التصارع والنزاع بين المدينة والقرية وبين طبقة البورجوازية وطبقة الشعب . فكانت الضريبة العقارية تفرض بوجه خاص على الفلاحين ولذلك كان أفراد الشعب الأغنياء يجدون من صالحهم تأجير أراضيهم وبنزحون هم للعيش في المدينة وبذا كانوا يتجنبون دفع هذه الضريبة ويتجنبون على الأخص جمعها من الفلاحين . ويقول توجو أن جمع هذه الضريبة كان يحول السوق من ملاك الريف إلى بورجوازيين . ولما كانت هناك من ناحية أخرى وظائف كثيرة تعد بالآلاف تضمن لأصحابها الإعفاء من الخدمة في الحرس الوطني أو من دفع الضريبة العقارية فقد أخذ البورجوازيون يشترون هذه الوظائف مما أدى إلى مضاعفة العبء على كواهل الفلاحين وزيادة ما يؤدونه من خدمات عسكرية وما يدفعونه من ضرائب مالية . ولهذا الأسباب كان

سكان القرى يكرهون سكان المدن أشد الكراهية وكان هؤلاء لا يتورعون عن التضحية بسكان الريف في سبيل مصلحتهم وخصوصاً فيما يتعلق بتسوية الضريبة الخاصة بدخول المحاصيل إلى المدينة إذ كانوا يهربون منها ويتركون عبثاً يقع على كاهل الفلاحين وخدمهم .

ولم يكن التصارع بأخف وطأة بين أفراد الشعب والنبلاء . فقد ظهر للعيان قبيل الثورة الفرنسية أن إعفاء النبلاء من الضرائب كان ينطوي على ظلم صارخ لاسيما أن الضرائب التي كانت قليلة في القرن الخامس عشر وكانت لا تتعدى مليوناً ومائتي ألف جنيه في عهد شارل السابع قد أخذت تزداد عدداً وكماً في عهد لويس السادس عشر حتى بلغت ٨٠ مليوناً من الجنيهات . وإلى جانب إعفائهم من الضرائب أصبح النبلاء في العصور المتأخرة لا يؤدون كذلك الخدمة العسكرية وهي التي كانت تبرر إعفاءهم من الضريبة العقارية ولم يكن هناك نظام يحتم عليهم دفع مقدار معين من المال لإحلال غيرهم محلهم في خدمة الجيش كما كانت الحال في ألمانيا . وقد كان الحقد على النبلاء الجدد أشد من الحقد على طبقة النبلاء القديمة ونعني بالنبلاء الجدد أولئك السوقة الذين أثروا واشتروا الألقاب بالمال وأصبحوا يتمتعون بامتيازات باعدت بينهم وبين طبقتهم القديمة وهي الإعفاء من الضرائب ومن الخدمة في الحرس ومن أعمال السخرة وقد لاحظتوكفيل هذه الحال حين كتب أن

طبقة النبلاء لم تكن أطوع لمبادئ الثورة مما كانت عليه في سنة ١٧٨٩ وأن البورجوازيين وأصحاب الألقاب الجديدة هم الذين كانوا أشد الناس بعدا وانفصالا عن تلك المبادئ. وفي بعض الأقاليم — كما يقول — كان النبلاء الجدد موضع كراهية النبالة القديمة والبورجوازية في آن واحد.

والخصام بين الطبقات هو دائماً خصام بين طبقة محرومة وطبقة محظوظة أو على الأقل بين طبقة غارمة وطبقة غائمة. ولما كانت الطبقات العليا تحاول أن تحتفظ بمغانمها وامتيازاتها إزاء الطبقات الدنيا فإن هذه الأخيرة تجد نفسها أو ترى أنها في موقف الطبقات المضطهدة المظلومة وتبدو الطبقات العليا أمام ناظرها صاحبة الظلم والطغيان. ومن جهة أخرى فإن رغبة الطبقات الدنيا في الإرتقاء والصعود تدفعها إلى تجريد الطبقات العليا من امتيازاتها وحينئذ تشعر هذه الطبقات المنتخمة بأنها مهددة من جانب الطبقات الطامعة وتعتبر نفسها في حالة دفاع مشروع إزاءها. وحين تصل الخصومة بين الطبقات إلى هذا الحد يخشى أن تنقلب إلى صراع سافر وغالباً ما يؤدي هذا الصراع بين الطبقات إلى حدوث الثورات.

يبدو لنا إذن أن الصراع بين الطبقات ينشأ عن عاملين. الأول الضغط أو الظلم الذي يقع حقيقة أو بتأثير الوهم والخيال من طبقة

على أخرى ، والثاني تيقظ شعور الطبقة التي تعتبر نفسها مظلومة وإحساسها بكيانها وبقوتها وبأهميتها في المجتمع وتبلور مطالبها تجاه الطبقة العليا وسعيها للحصول على حقوقها .

على هذه الأسس قامت في الماضي أنواع الصراع بين الفقراء والأغنياء في الجمهوريات اليونانية وبين طبقة الدهماء وطبقة الأشراف في روما ، وبين البورجوازية من ناحية والنبلاء ورجال الكنيسة من ناحية أخرى في إنجلترا وفرنسا وهو نفس الصراع الذي نشده اليوم في أوروبا بين الطبقة العاملة والطبقة البورجوازية .

وبمقارنة أنواع الصراع التي نشبت بين الطبقات في الشعوب المختلفة وفي العصور المختلفة يظهر لنا أن نتائجها كانت متباينة ، وأن هذا التباين يرجع إلى اختلاف العقليات والصفات العنصرية عند الشعوب التي كانت مسرحاً لهذا الصراع ، كما يرجع إلى الظروف التاريخية التي نشب فيها هذا الصراع .

ففي بلاد الإغريق والرومان حيث كان الأغنياء يمتلكون عبيداً يقومون عنهم بجميع الأعمال اليدوية والفنية كصناعة النسيج والمعادن والأسلحة تربية الأطفال بل والطب كذلك كان المواطنون الفقراء لا يكادون يجدون عملاً . وحين كانوا يرون العبيد يكفون من حولهم في كل مكان رسخت في نفوسهم كراهية العمل واحتقاره

ويصف لنا فوستيل دي كولانج Fustel de coulanges تلك الحالة بقوله :

« حيثما وجدت التجارة فإن أرباحها تعود على الأغنياء بسبب المغالاة الفادحة في الأثمان أما حيثما وجدت الصناعة فإن الصناع كانوا في غالبيتهم العظمى من العبيد ، على أن روما حين وسعت رقعة ممتلكاتها وغدت شيئاً فشيئاً صاحبة السيطرة على جميع البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط يسرت بذلك للمواطنين طريق الإثراء بممارسة التجارة وإجراء العمليات المالية وحين امتلأت الخزانة العامة عن طريق سلب البلاد المفتوحة وفرض الضرائب على الشعوب التي غلبت على أمرها أصبح في إمكان الدولة أن تمنح المعونة لأفراد الطبقة الشعبية الفقيرة وذلك بتزويدهم بالخبز مجاناً وتسليمتهم بحلبات الألعاب (Panem et circenses) ولكن الأمر في بلاد الإغريق لم يكن على هذا النحو إذ كانت المدن الإغريقية على العكس من ذلك منطوية على نفسها وكانت في عجزها عن تكوين دولة موحدة لا يفتر النزاع بينها حتى انهكها الحروب التي كانت تقوم بين بعضها وبعض . ولما كانت معظم هذه المدن غفلا من الموارد الصناعية أو التجارية وكانت المدن الصناعية أو التجارية نفسها تبعثر أموالها وقوتها في الحروب العقيمة التي يصبح فيها المنتصر اليوم مهزوماً في الغد، فإنها لذلك لم يكن لها من الموارد ما يسمح بزيادة ثروتها العامة ويمكنها من إمداد

الفقراء بجزء من هذه الثروة من غير مساس بثروة الآخرين، ولكن الفقراء كانوا مساوين للأغنياء في الحقوق وحين أدركوا أنهم « سادة الموقف في الانتخابات أخذوا يفكرون في أن يصبحوا سادة الموقف من حيث الثروة كذلك ، وبدأوا محاولاتهم بطلب الأجر نظير حضورهم جلسات الجمعية الوطنية أو تنصيبهم للحكم في بعض القضايا ثم أخذوا يبيعون أصواتهم، ولما وجدوا أن هذه الوسائل ليست كافية أعلنوا الحرب سافرة على الأغنياء . واتخذت هذه الحرب في بادئ أمرها شكل مطالب قانونية فطلب إلى الأغنياء أن يتكفلوا بجميع المصروفات العامة وزيدت أعباءهم من الضرائب وكفؤوا ببناء السفن الكبيرة وطلب إليهم أن ينظموا احتفالات للشعب على نفقتهم . وبعد ذلك ضوعفت الغرامات التي كانت توقع عليهم بمقتضى حكم المحاكم ثم أخذ القضاة يحكمون بمصادرة أموالهم لأنهم للأسباب « وحكم على الكثير من المواطنين بالنفي لا لسبب إلا لأنهم أغنياء وضمت أموالهم إلى الخزنة العامة ثم وزعت بعد ذلك في شكل قطع نقدية صغيرة على الفقراء . وفي آخر الأمر لجأ الفقراء في كثير من المدن إلى استخدام حقهم في التصويت لاتخاذ قرارات تنص على إلغاء الديون أو لمصادرة أموال الأغنياء بالجملة ، . وما كاد الشعب في سيراكيوز يتخلص من الطاغية « دنيس Denys » حتى أصدر قرارا بتقسيم الأراضي

وفي ميسينيا<sup>(١)</sup> ما كاد الحزب الشعبي يتفوق على الأحزاب الأخرى حتى شرع في نفي الأغنياء وتقسيم أراضيهم وحدث نفس الأمر في بعض المقاطعات الأخرى . فما لبثت الأغنياء المجردون من أملاكهم أن ازداد عددهم فكونوا جيشاً واسترجعوا به سلطتهم بالقوة . وهكذا تعاقبت الثورات في كل مكان ، وقد كانت تهدف تارة إلى تجريد الأغنياء وثارة أخرى إلى إرجاع أملاكهم إليهم ووجد فيها الجانبان فرصة لارتكاب الجرائم وأعمال القسوة والوحشية .

وإذا كانت روما قد عرفت كذلك المنازعات الداخلية ، وحركات التذمر والهياج كما حدث في عهد الإخوة « جراكبوس Gracques » ، وعرفت كذلك الحروب الداخلية كما حدث في عهد « ماريوس » و « سيللا » ، إلا أنها لم تمان ما عانته أثينا من أنواع الدمار . فالصراع بين الطبقات في أثينا كان ينتهى دائماً بحروب داخلية متصلة لا ينتج عنها إلا الحكم الدكتاتورى ( أو ما كانوا يسمونه حينئذ بالطغيان la tyrannie ، أو وقوع البلاد في براثن العدو الأجنبي كالفرس ، والمقدونيين ، والرومان . أما في روما فقد اتخذ الصراع بين الطبقات شكلاً أكثر اتزاناً بسبب سمو الروح الوطنية وسيادة النظام عند الشعب من ناحية ،

(١) Messene مقاطعة في البلوبونيز وهي غير ميسينا في جنوب إيطاليا .  
( المترجم )

ويسبب حكمة رجال « السناتو » الروماني من ناحية أخرى . فنتج عن ذلك سلسلة من الاتفاقات وضروب التفاهم بين طبقة الشعب وطبقة الاشراف ، وعلى أثرها ازداد التقارب بينهما وامتزج كثير من أفراد الشعب بالاشراف عن طريق الزواج ، كما اشتركوا معهم في ممارسة وظائف القضاء .

وفي فرنسا انتهى الصراع بين البورجوازية من ناحية وطبقة النبلاء ورجال الكنيسة من ناحية أخرى بقيام الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩ ، كما انتهى صراع الشعب ضد البورجوازية بانتصار الحركة الشعبية في ٣١ مايو سنة ١٧٩٣ . وبدأ بذلك عهد من الثورات تتابعت فيه أنظمة الحكم فخلت الجمهورية محل الملكية والديكتاتورية أو الامبراطورية<sup>(١)</sup> محل الجمهورية ، ثم حلت الملكية محل الامبراطورية<sup>(٢)</sup> ، وتعاقبت الأسر الحاكمة واحدة بعد أخرى<sup>(٣)</sup> . فلم يتسن لفرنسا أن تنعم بنظام ثابت من جراء هذا التعاقب إذ أن أطول نظام عرفته منذ قيام الثورة الفرنسية لم يدم سبعين عاما .

أما في إنجلترا فان روح التفاهم والتعاقد والنزعة العملية عند الشعب الإنجليزي ، ومزاجه المحافظ بطبيعته ، والثقة التي وضعها

(١) يقصد بذلك امبراطورية نابليون

(٢) ملكية لويس الثامن عشر الذي جاء بعد هزيمة نابليون في واترلو .

( المترجم )

(٣) يقصد بذلك أسرة نابليون الثالث التي جاءت بعد أسرة البوربون ( المترجم )

(١٦١)

في صفوته المختارة من رجال الحكم كل ذلك كان من شأنه تدعيم  
النظم واستقرارها بالرغم من قيام ثورة قصيرة الأمد . وإذا كانت  
« الثورة الكبرى » في سنة ١٦٤٠ ، وهي ثورة البرلمان الطويل ،  
قد انتهت في سنة ١٦٤٩ بإلغاء الملكية ثم إلغاء مجلس اللوردات  
والكنيسة الإنجليزية، فإن جميع النظم الملغاة ما لبثت أن عادت ثانية  
ابتداء من سنة ١٦٦٠ أى بعد رجوع شارل الثاني إلى الحكم وتم  
تحسين حال الطبقات الفقيرة عن طريق سلسلة من الإصلاحات  
وبدون الالتجاء إلى ثورة جديدة .

وقد اتخذت الخصومة بين الطبقات والصراع بينها شكلا جديدا  
في أيامنا هذه فهناك صراع الطبقة العاملة ضد البورجوازية ، أو  
بصورة أعم صراع الطبقة الكادحة le prolétariat ضد الرأسمالية .  
ذلك أن الطبقات الفقيرة في روسيا تشمل من الفلاحين أكثر  
مما تشمل من العمال .

وإذا كان الأغنياء والفقراء قد وجدوا في جميع العصور ، إلا  
أن الخلاف بين الطبقتين المتضادتين ، طبقة « الرأسماليين » وطبقة  
« الكادحين » يعد سمة من سمات العصر الحاضر ، وهو نتيجة للاخذ  
بمذهب الاقتصاد الحر الذى انطبع بطابع الفوضى في القرنين  
الثامن عشر والتاسع عشر . فقد أدى اعتناق هذا المذهب إلى سيطرة  
الطبقة البورجوازية ، وغدت هذه غريمة الطبقة الاستقراطية التي

كان لها السلطان قديما وغريمة الشعب الذى عاش فى بؤس وضعف .  
فلما اختفت الاستقرائية ، انحصر النزاع بين الشعب  
والبورجوازية .

وقد أدى التطور فى النظام الاقتصادى إلى توجيه هذا الصراع  
بين الطبقتين وجهة خاصة . ونعنى بهذا التطور إنشاء الشركات المساهمة  
التي استطاعت بفضل توزيع الأسهم على عدد كبير من الناس ( مما  
يقلل من اخطار المخامرة ودعوة الجمهور للاكتتاب ) استطاعت  
أن تجمع رؤوس أموال ضخمة مكنتها من ايجاد الموارد الكافية لتمويل  
المشروعات الكبيرة كحفز الترعى ومد السكك الحديدية والبحث عن  
المناجم وبناء المصانع وشق القنوات عبر البرازخ<sup>(١)</sup> الخ . . . ولم  
يكن فى استطاعة الأفراد وحدهم القيام بمثل هذه المشروعات  
الضخمة مهما بلغت درجة ثرائهم . وقد ازدهر الاقتصاد ازدهارا  
كبيراً على أثر تحقيق هذه المشروعات . ولا أدل على ذلك من  
زيادة سكان أوربا إلى ثلاثة أمثال عددهم فى قرن واحد . على أن  
كل تقدم يحمل لسوء الحظ فى طياته غرماً وقد كان غرم التقدم  
الاقتصادى فى القرن التاسع عشر فادحاً تلمقت الطبقة العاملة أكبر  
قسط منه .

(١) مثل قناة السويس التي سبغت الحكومة المصرية بجزء كبير من تكاليف  
حفرها ، وبجميع العمال ، الذين آثموا هذا الحفر ، ومع ذلك وجدت من ينكر  
أحقية مصر بامتلاكها ، وثارت الدول الاستعمارية حين صدر قرار الحكومة  
المصرية بتأميمها فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ . ( المترجم )

(١٦٣)

ويقول لنا « جوزيف شارمون Charmont ، في كتابه «تغيرات القانون المدني»<sup>(١)</sup> إن عيوب هذا النظام كانت تنحصر في فصل العمال الذين لم يكن لهم نصيب في أرباح المشروع عن الرأسماليين الذين كانوا يحصلون على جميع الأرباح بدون أن يقوموا بالعمل المنتج . ولا ينكر أحد أن هؤلاء كانوا يقدمون رؤوس الأموال اللازمة ويخاطرون بتعرضهم للخسارة . ولكن العمال الذين يسهمون في نجاح المشروع بعملهم المتواصل خلال سنين طويلة يرون كذلك أنهم أهل لنيل بعض الحقوق . ومن دواعي الأسف أن أصحاب رؤوس الأموال تحت تأثير روح الجشع والرغبة في تحقيق أرباح طائلة وفي نشوة ازدهار التجارة والصناعة — كانوا ينظرون في غالب الأحيان إلى الأجر الذي يدفعونه لعمالهم لاعلى أنه جزاء عادل يجب أن يتيح للعامل عيشة ميسورة بل على أنه باب من أبواب المصروفات يتعين عليهم أن ينزلوا به إلى الحد الأدنى . لهذا وجد العامل نفسه وقد انحدر إلى مستوى يكاد فيه لقاء أجر مرسوم لا يكفي في أغلب الأحيان لعيشه وذلك نظير قيامه بعمل لا استقرار فيه ولا ضمان له .

وقد ظهرت الطبقة الكادحة Proletariat في إنجلترا منذ مطلع القرن الثامن عشر وفي فرنسا حوالي سنة ١٨٣٠ . وهي في ارتباطها بالصناعة الكبرى وبالتقدم الآلى قد نشأت منذ اليوم

الذى أصبح فيه العامل مجرد يد عاملة ونكرة بين آلاف عدة يضمها المصنع الكبير حيث يتحتم عليه أن يعمل عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة نظير أجر يفرضه عليه رؤساء لا يتحملون أية مسؤولية . وعلى ذلك يمكن القول إن التقدم المادى للمجتمعات قد أدى فى هذه الظروف إلى الهبوط بالآف العمال إلى حالة البؤس وحكم عليهم بالعيش عيشة شظفة بل وبالتدهور الأخلاقى المحقق .

ومن جهة أخرى فان جهل الغالبية العظمى من المساهمين فى الشركات بطريقة ادارتها قد اضطرهم إلى الالتجاء إلى حفنة صغيرة من رجال الأعمال أصبحت هى المسيطرة على إصدار الأسهم والمكونة لمجلس الادارة ، وصارت تجمع فى يدها جميع الأرباح وتوزعها كيف تشاء . على هذا النحو أصبحت الشركات المساهمة حكرا لحفنة من رجال المال يمنحون أنفسهم المكافآت السخية نظير الساعات القليلة التى يكرسونها لاجتماعاتهم الموسمية ويعاملون مساهمهم — على حد تعبير المؤلف الذى ذكرناه — كما لو كانوا مسخرين يسهل خداعهم بتقارير وهمية عارية عن الصدق والصراحة . هؤلاء المساهمون ينالون فى العادة جزءاً من الأرباح إذا كان المشروع ناجحاً أما فى حالة الكساد فانهم يخسرون كل شىء . ولكن المشروع الكاسد بالنسبة للمساهمين قد يكون ذا فائدة لأعضاء الإدارة .

في هذه الظروف الاقتصادية التي ذكرناها أدى التصارع بين البرجوازية وبين الطبقة الكادحة إلى تيار فكري جديد نغنى به التيار الاشتراكي والشيوعي. أما الاشتراكية فقد عرفها «كورنو Cournot»، بانها «الجهود التي تبذل لمعالجة المساوىء التي نجمت عن تقدم النشاط الصناعي، والسعى وراء الثراء والتي أخذت تزداد كل يوم وضوحاً، وذلك بإجراء تجديد شامل للنظم الاجتماعية، وقد اقترح الكثير من وسائل التجديد وهي وسائل تختلف فيما بينها أشد الاختلاف غير إنها ليست من شأن بحثنا الراهن. ولكن الذي يتصل بموضوعنا هي النتائج التي أحدثتها تلك التيارات الفكرية وما نشأ عنها من عواطف مختلفة.

وإحدى هذه النتائج وأكثرها إثارة للدهشة تلك الكراهية التي عمت جميع الطبقات المتوسطة وجميع المهن الحرة المعروفة باسم البرجوازية والتي انصبّت على رؤساء الأعمال وكبار الرأسماليين الذين يراهم العمال نوعاً من الاقطاعية الصناعية والمالية. ولم تكن كراهية الكتلة الشعبية منصبة على البرجوازية العليا وحدها التي أثرت عن طريق السيطرة الاقتصادية بل أنها شملت أيضاً متوسطى البرجوازية وكذلك صغارهم. ولم يحفل الناس بالتمييز بين رأس المال الناتج عن الاقتصاد والتوفير ورأس المال الناتج عن المضاربات والعمليات المالية الكبرى؛ ومن هنا نظر إلى كل برجوازي سواء أكان كبيراً أم صغيراً على أنه «رأسمالى»

وأعتبرت هذه الكلمة الأخيرة مرادفة « لنهاز الفرص » الذى يستغل وسائل غير انسانية ويستفيد من نظام اجتماعى فاسد .

على هذا النحو جعلت الطبقة العاملة التى تشتغل فى الصناعات الكبرى من نفسها خصماً عنيداً للطبقة البرجوازية بأكملها أى لجميع الفئات التى تتمتع بقدر من وسائل الرفاهية وبنوع من الأمن على المستقبل وتحتفظ بمجموعة من التقاليد الخ... وأصبحت الطبقة العاملة فى تعرضها للبطالة وعدم اطمئنانها للغد تبدو كما لو كانت دخيلة على الدولة لا جزءاً من مجا فى كيانها . وهذا التعبير بالذات هو الذى ذكره الأستاذ « برنار لا فرنى Lavergne » فى سنة ١٩٣٨ إذ قال : إنه منذ سنة ١٨٩٠ أخذت الطبقة العاملة فى فرنسا تتحول تدريجياً إلى جسم غريب عن الدولة ؛ فقد تحررت من كل طاعة لقوانين البلاد التى لا تروق لها وعلى الأخص القوانين الخاصة بالتحكيم الاجبارى (الصادر فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ و ٤ مارس ١٩٣٨) والقوانين الخاصة بالاتفاقات الاجتماعية التى تستبعد الاضراب قبل التحكيم أو قبل انتهاء مدة الاتفاق الجماعى (وهى القوانين الصادرة فى ٢٤ يونية ١٩٣٦) . وقامت إضرابات العمال فى وسط الحرب للحصول على أجور مرتفعة كما لجأ عدد من الموظفين إلى الوسيلة نفسها للمطالبة بزيادة مرتباتهم بينما كانت الميزانية فى عجز . ومن ثم أصبح المجتمع فى خطر قيام حرب اجتماعية

(١٦٧)

وذلك من جراء الصراع بين اقطاعية أصحاب الأموال وكبار رجال الصناعة الذين أبوا التنازل عن أى شىء من امتيازاتهم وبين سخط الطبقة العاملة التى لا تريد أن تحترم شيئاً . وبما زاد الأمر تعقيداً تلك الممافسات السياسية والتيارات اللادينية والالحاد وطغيان العناصر الفوضوية . فالواجب إذن للدفاع عن المجتمع الذى تكثفته الأخطار من كل جانب أن تشرع الهيئات الحاكمة فى اتخاذ وسائل إصلاحية وأن تدعم القوى الاخلاقية التى تستطيع تنظيم الأهواء الجارحة والسيطرة عليها . أما ما يأتى بعد ذلك فلا يزال فى ضمير الغيب .

---

## الفصل الخامس

### انحيازات الطبقات واتجاهاتها الخلقية

تقوم وراء الاتجاهات الخلقية العامة المشتركة بين جميع الطبقات اتجاهات خلقية خاصة تتميز بها كل طبقة . فليست الواجبات الواحدة تتساوى في أهميتها بالنسبة لجميع الطبقات ، كما أنها ليست على درجة واحدة من حيث طابع الإلزام . ولا تتمتع فضائل بعضها بقدر واحد من التقدير والاحترام لدى جميع الطبقات ، وقل مثل هذا في الأحكام التي تصدرها الطبقات المختلفة على الأخطاء الخلقية فهي تتفاوت في درجة قسوتها أو تسامحها . وبهذا المعنى يمكن القول أن لكل طبقة طابعها الخلقى أو اتجاهها الخلقى المميز لها .

والحقيقة أننا نميل في العادة لأن نكون أكثر تسامحاً تجاه خطأ من الأخطاء كلما كنا أكثر تعرضاً للوقوع فيه أو نشعر بنوع من الإغراء نحو ارتكابه . وتتطلب من الآخرين إتقان الأعمال والواجبات التي نقوم بها نحن في دقة وصرامة أو التي لا يكلفنا أداؤها إرهاقاً ولا عنتاً . كما يزداد تقديرنا للصفات أو الفضائل التي يتيح لنا نشاطنا العادي أو ثقافتنا الممتازة فرصة

(١٦٩)

أكبر لإدراك أهميتها أو جمالها أو حاجة البلاد إليها أو ما تضيفه على العلاقات الاجتماعية من متعة وصفاء .

وهذه الحقيقة توضح لنا أن أنواع الحياة ومستوياتها المختلفة بكل ما تنطوي عليه من ضروب الإغراء والتخاذل والعادات الحسنة والقيحة تؤدي في كل طبقة إلى فوارق كبيرة في الأحكام الخلقية . على أن تمييز الخير من الشر، والشعور بالواجب، والرضا عن النفس من عمل الخير، أو تأنيب الضمير بعد عمل الشر ، كل هذه الاتجاهات الخلقية لا تنسم بنفس الوضوح ، ولا بنفس القوة ولا تنطبق دائماً على نفس الأفعال ، أو على نفس القدر من الأفعال بالنسبة لجميع الطبقات .

ومن ناحية أخرى فسبب اختلاف هذه الوسائل في تصور الأشياء أو الشعور بها وكذلك بتأثير العادات المكتسبة واعتياد تصرفات معينة نلتقطها من البيئة الاجتماعية التي ننتمى إليها نجد أن كل طبقة تتميز بقدر من الانحيازات ذات صلة بعواطفها وأهوائها وأذواقها وميوها ، كما تتفق أحياناً مع المثل الخلقى الذى تتخذه لنفسها .

وسنتكلم أولاً عن الانحيازات وعن قواعد الآداب واللياقة التى تتميز بها كل طبقة ، ثم نتعرض بعد ذلك للواجبات والفضائل فنكون بذلك قد تدرجنا من المظاهر السطحية إلى المعانى العميقة .

الانحيازات :

لكل طبقة نوع حياتها الخاص بها وأعمالها التي تتطلب منها استعدادات خاصة . وبقدر ما تبتعد هذه الأعمال عن الأعمال الخاصة بالطبقات الأخرى فإنها تكون غير مستعدة للقيام بأعمال أخرى تختلف عن أعمالها . وفي هذا المعنى يروى لنا آرثر يونج في كتابه : « رحلات في فرنسا »<sup>(١)</sup> أنه لم يصادف قط في إنجلترا واحداً من ملاك الأراضي ، له ثقافة وعادات هذه الطبقة ، قد استطاع أن يدخل في ميدان الصناعة أو التجارة دون أن يصيبه الإفلاس أو على الأقل دون أن يصاب بخسائر فادحة . وقد يكون ذلك راجعاً إلى ما اعتاده نبلاء الريف من عدم الاهتمام بالتوفير وبالأرباح الصغيرة التي هي روح التجارة وبدونها لا يكتب لها نجاح . كما قد يكون راجعاً إلى شعورهم الناتج عن ثقافتهم الخاصة والذي يدفعهم إلى استهجان الآراء والمبادئ الخاصة بالتجارة .

من هذا نستطيع أن ندرك أن اعتزاز كل طبقة بنفسها يجعل أفرادها يغالون في تقدير قيمة الأعمال والمهام التي تمارسونها فيها وتدريبوا عليها ويزداد ميلهم إلى هذا الغلو كلما كانت تلك الأعمال

(١٧١)

والمهام مصدر قوة ونفوذ لهم . كما أنهم يميلون إلى الغرض من قيمة الأعمال التي يصعب عليهم أداؤها . ويؤدى بهم ذلك فى الوقت نفسه إلى تمجيد الصفات الضرورية لنوع حياتهم وإلى احتقار الصفات التي تتطلبها حياة الطبقات الأخرى أو الاستخفاف بها .

ويمكن القول بوجه عام إن لكل طبقة كبرياءها . فالطبقات التي تشعر بشيء من التفوق والسمو على غيرها سواء أكان ذلك راجعاً إلى شرف المتمد أو الثقافة أو المركز الاجتماعى أو الثروة أو العلم تنزع بفطرتها إلى الخط من قيمة الطبقات الأخرى أو احتقارها . ويشهد على ذلك تحول بعض الكلمات عن معناها الأصيل إلى معنى التحقير . فكلمة *rustre* أو *Vilain* كانت فى الأصل تعنى ساكن الريف ، ولكنها تقال عادة اليوم بمعنى « جلف » أو « خبيث » ، وكذلك كلمة *manant* . فقد كانت تعنى فى الأصل ساكن المدن ، ثم أصبحت الآن تطلق على فاسد الخلق<sup>(١)</sup> .

ومن ناحية أخرى فإن الطبقات الدنيا كلما ازداد شعورها بدونيتها حاولت أن تطرد عن نفسها عقدة النقص هذه باتهام

---

(١) وكذلك فإن كلمة « فلاح » عندنا يقصد بها ساكن المدن الشخص الساذج أو الذى لا يسير الأذواق والأوضاع الحديثة . ( المترجم )

الطبقات العليا بالصلف والكبرياء والأنانية والغطرسة اما بالإشارة من طرف خفي إلى نواحي الضعف وعدم الكفاية عند بعض أعضائها الذين لم يصلوا إلى درجة الآخرين في المقدرة وحسن السمعة، وأما بالتهكم بتقليدها ومواقفاتها أو بجعل أسمائها وأوصافها سبة للذين يحاولون تقليدها. فكلمة «ارستوقراطية» أو «بورجوازي» إذا أطلقها عامل على زميل له كان يعنى بها التهمك عليه واحتقاره .

يضاف إلى هذا أن العواطف المألوفة أو السائدة في طبقة معينة هي مصدر كثير من أحكامها التقديرية . فاعتبار الاستقلال مثلا أعلى عند الطبقات الميسورة يجعلها ترفض أن تجبر على العمل الجسمي سواء أكان هذا الاجبار عن طريق السلطة كما هي الحال في الأشغال الشاقة أو بسبب الحاجة لكسب العيش كما هي الحال في سائر الأعمال اليدوية . وفي الوقت نفسه فإن اعتبارها الأناقة وحسن المظهر مثلا أعلى يجعلها تنظر نظرة احتقار الى الأعمال الخشنة أو التي لا جمال فيها أو التي لا تتلائم مع رقتها . وكل هذه الدوافع تفسر لنا ما استقر في نفوس هذه الطبقات من حكم جائر على الأعمال اليدوية في عمومها . فالبورجوازي أو رجل الطبقة المتوسطة يفضل دائما أن يزوج ابنته لموظف في مكتب على أن

( ١٧٣ )

يزوجها لعامل وذلك مع فرض تساويهما في جميع الظروف الأخرى<sup>(١)</sup> ويفضل لولده مهنة المحامي (ولو كانت كاسدة) على مهنة القصاب (ولو كانت تدر أرباحا كثيرة).

ولكى يعد العمل اليدوى مقبولا وشريفاً في نظر الطبقات العليا يجب أن يقوم به المرء في حرية وبدون مقابل . كأن يزرع حديقته بنفسه ويقلم أشجارها أو يجتث منها ما يريد الخ . . . فمثل هذه الأعمال لا غبار عليها . وفي أكثر العصور أرسستقراطية لم يأنف لويس السادس عشر أن يتعلم مهنة القفال ، كما أن ماري انطوانيت وسيدات البلاط لم يجدن أدنى غضاضة في حلب الأبقار وصناعة الجبن والزبد بأنفسهن في « البتي تريانون<sup>(٢)</sup> » ولم يكن احتقار التجارة في العهد الملكي القديم إلا لأنها تنسم بطابع المنفعة الذاتية . فلم يكن تجريد صاحبها عن رتبته بسبب المهنة ذاتها بل بسبب الكسب . ولذلك فإن لورد « روس Ross » لم يعتقد أنه خرج على تقاليد النبالة حين صمم منظاراً مقرباً ( تلسكوب ) لأن هذا العمل كان لخدمة العلم لا بقصد الكسب والربح . وينطبق هذا نفسه على الأعمال ذات الطابع الجمالى كالأعمال التطريز والمخمرات ( الدنتلا ) وغيرها وهى الأعمال التى تنصرف

---

(١) بل قد بلغ من احتقار العمل اليدوى في مصر والمشرق عموماً أن الرجل يفضل أن يزوج ابنته لموظف صغير على أن يزوجها لصاحب مصنع أو تاجر يكسب أضعاف ما يكسب الموظف : ولكن لحسن الحظ فإن هذه النظرة الخاطئة قد بدأت اليوم تتلاشى شيئاً فشيئاً .  
( المترجم )

(٢) شاليه صغير فى حدائق قصر فرساي .

إليها السيدات في أوقات فراغهن . وعلى العكس من ذلك فإن الأعمال المبتذلة كترقيع الملابس ورفو الجوارب أو غزلها تعتبر أعمالاً مهينة إلا إذا قامت بها سيدات المجتمع الراقي لمساعدة الفقراء، وفي هذه الحال فإن الرغبة الطيبة وحب الاحسان الذى دفع إليها يعطى لهذه الأعمال اليدوية صفة الجمال التى لا تتحقق بدون ذلك .

وقد يذهب التمسك بالانحيازات أحياناً إلى حد منافاة الأخلاق نتيجة لنوع من التحريف الأعلى للواقع . ومن قبيل ذلك ما يرويه « مابلى Mably » من أن صغار النبلاء فى ألمانيا فى العصور الوسطى — وهم من يعرفون بالصقور *Les hobereaux* كانت تصل بهم غطرسة الطبقة العسكرية إلى حد اعتبار التقاضى أمام المحاكم طريقة بورجوازية محتقرة ماداموا يستطيعون أخذ حقهم بالقوة والسلاح<sup>(١)</sup> . وكان نفس الشعور هو الذى يدفع القبائل الجرمانية القديمة — على حد قول تاسيت Tacite إلى الاعتقاد بأنه من المخجل أن يحصل

(١) لاتزال هذه العرة فأمة فى الريف المصرى وهى نمرة الأخذ بالتأثر دون الانتحاء إلى المحاكم وينظر بين الاحتقار إلى من لا يأخذ تأره بيده . وهكذا نرى أن هناك عادات متشابهة فى الريف عند كثير من الشعوب وليسكن القدم الحضارى يقضى عليها فى بعض الجهات على حين تظل باقية فى جهات أخرى . وما لاشك فيه أن تقدم العلم والمساواة بين الطبقات سيقضيان على هذه العادة فى مصر كما قضيا عليها فى البلاد الأخرى .  
( المترجم )

المرء بالذهب على ما يستطيع أن يحصل عليه بالدم<sup>(١)</sup>. ويقول  
 « سيسموندى Sismondi ، في كتابه « تاريخ الجمهوريات  
 الإيطالية<sup>(٢)</sup> » ، أن النبلاء الإيطاليين كانوا حتى القرن الثالث عشر  
 يعتبرون « من الأمور المخجلة أن يخضعوا للقوانين ما دام في  
 مقدورهم اقرار العدالة عن طريق السلاح » ؛ وهذا يفسر لنا تسامح  
 الطبقة النبيلة في القرن الرابع عشر مع زعماء العصابات الكبرى  
 وإزاء حوادث قطع الطريق بواسطة العصابات المسلحة .

وقد لاحظ « بنتام Bentham » ، ملاحظات طريفة تلتقي  
 ضوءا على هذا الاختلاف بين الطبقات في العادات والمثل العليا  
 فقال أن الطبقات الشعبية تنظر بعين التسامح إلى صراع بطريق  
 الملاكمة لأنه محاولة لإيقاع بعض الألم الجسماني على الخصم  
 ولكنها لا تقبل المبارزة التي تحبذها الأرستقراطية لأنها محاولة  
 للقتل . ولاحظ كذلك أن البورجوازية تفضل ديون التجارة على  
 ديون الميسر على حين أن الطبقة الأرستقراطية تفضل العكس  
 وتصنف ديون الميسر بأنها ديون شرف . ويضيف بنتام — حين  
 يتحدث عن مستويات الاستهجان — أن الطبقات الديمقراطية  
 تنظر الى الأشياء من حيث ما تجلبه من الضرر قبل أن تنظر  
 إليها من حيث ما تسببه من السخرية . أما عند الطبقة

(١) أى أن يتزع المرء بالقوة ما يريد أن يحصل عليه ولو أدى ذلك إلى إرانة الدماء

(٢) Histoire des Républiques Italiennes (٢)

الأرستقراطية فالأمر على عكس ذلك تماما . والسبب في ذلك أن الطبقة الشعبية تقيس كل شيء بمقياس المنفعة على حين أن الطبقة الأرستقراطية تقيس الأشياء بمقياس حسن المظهر . وفي الأكاديميات والكليات والأوساط الجامعية أو المجتمعات الراقية نجد أن الاهتمام باللياقة والاحتشام يتقدم على الاهتمام بتطبيق العدالة في ترشيح الأعضاء ؛ ولذلك نجد أن هذه الأوساط تفضل أن تعين في أحد الكراسي الجامعية أو تركزى ترشيح عضو ممتاز من حيث مراعاته مبادئ اللياقة والاحتشام ولو كان أقل جدارة من عضو آخر لا يتسم بهذه السمة :

#### المظهر وقواعد اللياقة :

تأتى بعد الأحكام التقويمية التي تصدر عنها الانحيازات ، الأحكام التي تعين المظهر وقواعد اللياقة . فما يعد من مستلزمات « المظهر اللائق » ، في طبقة معينة قد يعد في طبقة أخرى نوعا من التحذلق يبعث على السخرية ، بل قد يبعث على الاستهجان باعتباره من التصرفات المنافية للخلق . ويذكر لنا « سرفان » في هذا الصدد : « أن الواحد من أفراد الطبقة العليا في القرن الثامن عشر كان يشيع غروره باتخاذ خلية من فتيات المسارح أو يهجر زوجته ليتخذ لنفسه عشيقه من زوجة آخر ، وكان يتباهى بمبازله وموبقاته وبأنه شيطان محبوب » .

وقد اتخذ ادعاء الفسق هذا والتباهى به شكلاً آخر عند الطبقات الشعبية . إذ يروى صديق لى بلغ الثمانين من عمره كان يشغل منصب مهندس عام بالسكك الحديدية ، وكذلك منصب مفتش بمدارس التدريب المهني ، مما أتاح له أن يلاحظ عن كثب عدداً كبيراً من سائق القطارات والعمال — يروى لى هذا الصديق : أنه كان يعجب أشد العجب لما كان يجده من التناقض بين سلوك العمال الفعلي وما يخلقونه من أقاويل . فقد كان الواحد منهم يحرص أشد الحرص على سمعة زوجته ويغار على عفتها ، ولا يحميد في سلوكه عن هذا المبدأ . ولكنه يفتعل نوعاً من الشك في طهارتها ويدعى أنه لا يعلق على انحرافها أهمية كبيرة ، ويحاول أن يدخل في روع الآخرين أن له صولات وجولات في ميادين الفسق والدعارة ، وكل ذلك بدافع من التفاخر والزهو الباطل . ولا يوجد مثل هذا الادعاء والتباهى بالفسق بين أفراد البورجوازية الطيبة المستقيمة الذين تتمشى لديهم اللغة المهذبة مع الهندام الحسن .

ومن الطبيعي ألا تكون الأحكام التي تصدرها إحدى الطبقات على الأخرى كالأحكام التي تصدرها حكم عدل غير متحيز يرسم حدود الخلق والذوق السليم . فما يعد احتراماً للذات وللآخرين في طبقة معينة قد يعد نفاقاً في طبقة أخرى ، وما يعد صراحة وتلقائية في وسط معين قد يعد تبذلاً وإسفافاً في وسط آخر .

وعما لاحظته الكورنثية « دى بوانى De Boigne ، فى هذا الصدد وأشارت إليه فى مذكراتها : أن سيدات المجتمع الراقى تم تصرفاتهن عن عدم الكلفة ويتركن طبيعتن على سجيتهما مما يشيع فى الجورح الإلف والشعور بأنهن ، أينما حللن ، فى بيوتن ، حيث يستقبلن فى أدب وود . ولكن مثل هذه الطريقة فى التصرف تصدم الطبقات الأخرى ، وعلى الأخص البورجوازية فإنها تضيق بها لما طبعت عليه من الاهتمام بالصغائر وشيوع الحسد فيما بينها . ذلك أن لكل طبقة فى الواقع طريقته الخاصة فى مراعاة قواعد التأدب ولها قننها الخاص فى المعاملة بحيث لا تصدم عواطف الآخرين وتحوز رضاهم .

وقد سنحت فرص كثيرة لأحد أصدقائى — وهو يسافر كثيراً بالسكك الحديدية — لأن يلاحظ الفروق الشاسعة فى قواعد التأدب بين الطبقات الشعبية والطبقات الميسورة . فعندما يسافر بالدرجة الثالثة غالباً ما يحدث أن يدعو رفقاء السفر لأن يقاسمهم طعامهم ولا يحدث هذا بته حين يسافر بالدرجة الثانية . ذلك أن ما يراه ركاب الدرجة الثالثة من واجبات الأدب يعتبره الآخرون إلفاً وتدخلًا فى غير موضعه . وما تراه البورجوازية من واجبات التحفظ والاقتصار تعتبره طبقة الشعب أنانية . كما أن التضامن الذى يبدو بشكل واضح بين أفراد الشعب وحاجتهم الدائمة لتبادل وسائل المعونة تخلق فيهم أنواعاً من السلوك والشعور

تختلف عن تلك التي نجدها بين أفراد الطبقة البورجوازية الذين يعيشون في يسر ويستطيع كل واحد منهم أن يكتفي بذاته . ومن هذا الاختلاف تتفاوت أحكام كل من الفريقيين وتقديراتهم لنفس الأمور .

وبالرغم مما قدمناه من وجوه الاختلاف فمن الواضح أن الطبقات العليا تعلق على قواعد التأدب وطرأئق السلوك من الأهمية أكثر مما تعلق الطبقات الدنيا وأنها تهتم كثيراً بتحديد ما يليق وما لا يليق . « فمن الطبيعي — كما لاحظ البارون دي بزنفال De Besenval في «خواطره عن حسن المظهر»<sup>(١)</sup> — أن يكون للفئات التي يجنبها ثراؤها عناء البحث عن القوت اليومي، ومصاعب الكفاح من أجل العيش خصال أرق وتهذيب أكبر . ثم يضيف إلى هذا « أنه من السهل كذلك أن نفسر ما يمتاز به نبلاء البلاط من تأدب : إذ أن حرصهم على إرضاء الملك أو الأمير يحتم عليهم أن يتقنوا التظاهر بإنكار الذات ويجعلهم يبدون أقل اهتماماً بما يمنح لهم من أولئك الذين يعتبرون أنفسهم على قدم المساواة ويحرسون دائماً على أن يراعى بعضهم كرامة بعض .» وقد لاحظ «الترسكوت» كذلك في مؤلفه «أمواه القديس رونان»<sup>(٢)</sup> أن الطبقات العليا تعرف جيداً أن هناك مظاهر يجب أن تلاحظ وشعوراً يجب أن يراعى

---

Reflexions sur le bon ton.

(١)

Les eaux de Saint Ronan.

(٢)

ولا ينبعث ذلك عن إحساس أحدهم بواجبه نحو الغير بقدر ما ينبعث عن إحساسه بواجبه نحو نفسه . وما يؤسف له أن هذا الاحترام للذات وهو ما تتميز به الطبقات العليا قد أعوز الكثيرين من أفراد الجماعات في ديموقراطياتنا الحديثة وعلى الأخص في السنوات الأخيرة للجمهورية الثالثة في فرنسا<sup>(١)</sup> ؛ ولطالما هاجمت الصحف اليومية والأسبوعية في شكل نوادر وأقاصيص لاذعة عدم المبالاة وروح التبذل التي اتسم بها بعض رجال السياسة وبعض رجال مكاتب الوزراء في ذلك العهد .

الواقع أن التربية القويمة تسير جنباً إلى جنب مع الثراء عند الطبقات العليا أو على وجه التحديد عند تلك الطبقات التي توارثت الثراء أكثر مما اكتسبته إذ يسود أفرادها الاهتمام بالمظهر ومراعاة شعور الآخرين واحترام العرف والتزام قواعد التأدب واللياقة وحب « الفخفة » والتحرر من قيود السلوك والإيماءات والألفاظ . وما يتصف به « كرام المحند » ودعالية القوم ، في الواقع : السيطرة على النفس والتحكم في كل بادرة ومراعاة ما يصدر عنهم من قول أو فعل والتزام القصد في العبارة . أما عند الطبقات الشعبية فالأمر على عكس ذلك إذ تتغلب لديهم الرغبة في التحرر من كل قيد فلا يهتمون إذا كانت تصرفاتهم تضايق الآخرين أو

(١) وهي الجمهورية التي سقطت بعد هزيمة فرنسا المنكسرة أمام الألمان في

تصدّمهم كما يميلون إلى فعل ما يروق لهم ويرفعون أصواتهم أو يضحكون كما يريدون وهذه النزعات تتغلب لديهم على الاهتمام بالمظهر واللياقة ومراعاة ما يبعث على الاحترام ، ولذلك فإن سيطرة الطبقات الشعبية في عصور الثورات تؤدي إلى تغيرات يختلف حظها من العمق في أنواع السلوك الاجتماعي وألفاظ اللغة . ولا أدل على ذلك مما حدث إبان الثورة الفرنسية إذ اختفت قواعد التأدب وأصول « الإتيكيت » التي كانت سائدة في العصر الملكي مثل تقبيل اليد والانحناءات ومظاهر التعظيم والإجلال وحلت محلها وسائل جافة وغليظة وألفاظ صارمة كاستخدام كلمة « مواطن » و « مواطنة » بدلا من كلمة « سيد » أو « سيده » أو « آنسة » وكذلك مخاطب بضمير المفرد واستخدام ألفاظ السباب التي ذخرت بها عبارات الثوار ومقالات « الأب دوشين Père Duchenne »<sup>(١)</sup> ، التي كان يحررها « هيبير Hébert »<sup>(٢)</sup> .

### الصفات والفضائل :

إذا كان التبذل في القول أو الفعل يشير إلى غلبة الأنانية

(٢٠١) الأب دوشين : اسم جريدة من أعنف جرائد الثورة الفرنسية ، وكان يحررها « هيبير » وهو من أشد رجاك الثورة تحمسا للعنف والقوة . وقد حذ في مقالاته مذابح سبتمبر ، وكان له تأثير كبير على الجمعية الوطنية حتى قبض عليه وحكم عليه بالإعدام شنقا مع كثير من أنصاره في سنة ١٧٩٤ .  
( المترجم )

على الغيرية وعلى عدم الاهتمام بالآخرين أو احتقارهم وعدم الحرص على نيل التقدير والسمعة الطيبة ، فإن توخى آداب المعاملة — وهو ما يعرف « بالطيبة المكتسبة » — يتضمن قدراً من الغيرية وينطوى على روح البر والتضحية ، إذ يقاوم المرء ما يعرض له من بوادر أنانية ، ويهيم على نفسه ، ويبدل جهداً كبيراً لكي يرضى الآخرين ويتجنب مضايقتهم في أى أمر .  
وهذا المعنى يكون التأدب فضيلة إلى حد ما .

ولست هذه الصفات وحدها هي التي تحدد اختلاف تسكيف الطبقات المختلفة بالحياة الاجتماعية . فالرقة والتلطف ليستا الصفتين الوحيدتين اللتين تتجلى بهما صفوة القوم ، بل إنها تمتاز أيضاً بالقدرة على الإخلاص للصالح العام وبالتطوع للتضحية في سبيل الوطن ، وبالرغبة في تنوير جميع المواطنين ، وبالإصرار على اكتساب للكفاءة التي تمكن من خدمة الدولة والعمل على إصلاح الأخلاق والتخفيف من حدة البؤس . وهذه الصفات التي تكون زبدة الأخلاق في أى دولة ، ليست وفقاً على طبقة معينة ، بل نستطيع أن نجدتها عند أفراد من جميع الطبقات إلا أنها مع ذلك تشيع في بعض الأوساط أكثر مما تشيع في أخرى .  
فالفردية الأنانية وحب الكسب والسعى إلى الإثراء دون تقييد بسلامة الوسائل ، كل هذه صفات نجدتها لدى التجار وكبار رجال الصناعة أكثر مما نجدتها لدى أفراد الطبقة المتوسطة من

ذوى المهن الحرة . كما أن عدم الاهتمام بالمصالح العامة للوطن والميل إلى إرضاء مطالب الطبقة وتقديمها على صالح المجتمع صفات يغلب وجودها لدى أفراد الطبقة العاملة<sup>(١)</sup> . ويتصف أفراد الطبقة الوسطى ، أو البورجوازية المجددة العاملة بالاهتمام بحل مشاكلهم بأنفسهم والاعتماد — لتحسين حالهم — على العمل الموصول ، وعلى تعود الاقتصاد والتوفير . أما الرغبة في العيش عالة على الآخرين والسعى إلى كسب المال بدون عمل ، والاعتماد على الدسائس والمحسوبة والاتصالات السياسية للوصول إلى الغرض فإنها صفات من يمكن أن نطلق عليهم اسم حثالة البورجوازية ، أو حثالة الشعب ، أو من نستطيع أن نلقبهم كذلك : « بالخاملين العاطلين » . ولا نجد في المجتمع من هم أحط من هؤلاء إلا طبقة من يعيشون على أعمال القرصنة كقطاع الطرق واللصوص والمجرمين .

وإذا كان الطفيليون وذوو الوجه الصفيق والملحفون في الطلب ومن على شاكلتهم ممن تأصلت فيهم روح التسول واتخذت أشكال مختلفة وراء حجاب من المظاهر البراقة — إذا كان أمثال

---

(١) لاحظنا أن إنؤلف ينكر ، في مواضع عدة ، على العمال وطينتهم ويتعامل عليهم ، وليست هذه وجهة نظر موضوعية . والحقيقة أن العمال هم الدعامة الأولى لبناء صرح الوطن ، وإذا كانوا يجتجون أحياناً أو يثرون فإذ ذلك إلا لدفع استغلال أصحاب العمل والمطالبة بحقوق مشروعة . ( المترجم )

هؤلاء يوجدون في كل طبقة بما في ذلك طبقة الصفوة نفسها إلا أن روح الكسل والخمول والرغبة في الحصول على المتعة بوسائل خسيسة والاستناد إلى الفرص التي تتيحها الدسائس والمحسوبية كل أولئك صفات تكون أكثر وضوحاً عند بعض الطبقات ، منها عند بعضها الآخر . كما أن حظ الطبقات منها يختلف بحسب العصور وبحسب الظروف الخاصة التي تسود في كل عصر . ويسرى نفس القول على الإجماع الذي يغلب وجوده في الأوقات العادية بين أفراد الطبقات الدنيا ، إما بسبب الفقر الذي يضعف مقاومتهم لعوامل الإغراء ، وإما لقلّة حظهم من التربية أو لضعف سيطرتهم على أنفسهم أو لانفداعهم إلى غير تلك من الأسباب .

ويمكن القول بصفة عامة : إن ضروب الفضائل والأهواء التي تتصف بها طبقة معينة تنبع من نوع حياتها ومن الدور الذي تلعبه في المجتمع ، والوظيفة التي تؤديها . ولذا نجد أن الطبقات المهممة على شؤون الإدارة والحكم تتصف عادة بالحكمة والحذر ، وأن الطبقات العسكرية تتصف باحتقارها للأخطار والتطلع إلى المجد والشجاعة وحب النظام ، وأن الطبقات العاملة تتميز بالوعى المهني وحب العمل والحرص على إتقانه . ولما كانت الطبقة البورجوازية تهتم كثيراً بالمسكن والأثاث والملبس وأدوات الزينة والمساودة فإنها لذلك تميل إلى الاقتصاد لأن أئمن ما تملكه

لا يحتفظ بقيمته إلا بالمحافظة عليه . ونلاحظ عكس ذلك لدى الطبقة العاملة التي تنفق الجزء الأكبر من كسبها على الغذاء وتهتم بملذات المائدة والحانات أكثر مما تهتم بأنواع المتع الأخرى ، وهي لذلك تبدو أكثر ميلاً إلى التبذير لأن أغلب ما تملكه لا يمكن التمتع به إلا باستهلاكه . ويترتب على ذلك أن العمال غالباً ما يقنعون بالمسكن المتواضع مفضلين إنفاق أقل ما يمكن على المسكن ، وأكثر ما يمكن على سهرات الحانة فلا تلبث هذه العادة أن تجرهم إلى الرذيلة المبكرة ، وتضعف عندهم الميل إلى حياة الأسرة . غير أننا من ناحية أخرى نجد أن عدم المبالاة التي يتصفون بها وتعودهم المعيشة يوماً بيوم دون الاهتمام بما يحمله المستقبل قد أبعدهم عن التدبيرات الأشرة مما يبيث في نفوس العناصر الطيبة فيهم روح الإخلاص والتفاني في خدمة الزملاء ، ويدفعها في طريق الخير والشفقة ، ويملاً أرواحها بالعواطف التلقائية التي لا تعرف الزيف أو الالتواء<sup>(١)</sup> .

أما الطبقة الأرستقراطية فيسود فيها الكبرياء والطموح وحب السلطة ، وألقاب الشرف عند الرجال ، على حين يسيطر الزهو على السيدات ويتخذ أشكالاً مختلفة منها حب الزينة والحلي والتطلع إلى عبارات الإطراء والمدح وحب الظهور في الأماكن

(١) وأخيراً نجد أن المؤلف قد مال إلى إنصاف طبقة العمال واعترف بما لديهم من الحاصل الحميدة وبجهم للخير وتبليغهم لواجبات الزمالة . ( المترجم )

الممتازة والتقدم على الغير الخ... ويسود لدى أفراد الطبقة البورجوازية العليا — التي تملك زمام التجارة وأعمال المصارف وعقد الصفقات — الميل الشديد إلى الربح والتباهى بالغنى والثروة وحب الترف . أما الطبقات الدنيا فتميل في العادة إلى إدمان الخمر وملذات الجسد بمقدار ما يفتر في نفوس أفرادها الشعور بقيمة الكرامة الإنسانية .

نخلص مما تقدم بأن لكل طبقة فضائلها التي تجعل منها نموذجاً يحتذى الآخرون كما أن لها مثالبها التي تحول دون محاسنها . والمجتمع الكامل الذي لا وجود له في هذه الدنيا والذي نستطيع أن نتخيله مثالا ينبغي أن نقرب منه شيئاً فشيئاً هو المجتمع الذي تسعى فيه كل طبقة بكل ما أوتيت من عزم أن تكتسب ما عند الطبقات الأخرى من فضائل ، وأن تتنافس معها وتضم إليها جهودها لتحقيق الخير للجميع .

### التأثير الثقافي المتبادل بين الطبقات :

إن التأثير الثقافي للطبقات بعضها في بعض ليس محض خيال ولا هو بالوهم الذي لا صلة له بالواقع . وإذا كان هذا التأثير لا يعبر عن وظيفة طبيعية سوية من وظائف المجتمع ، فإنه مع ذلك يحدث بطريقة تلقائية نتيجة لمحاكاة الطبقات الدنيا للطبقات العليا عن قصد أو غير قصد . وتبدو هذه المحاكاة على الخصوص

(١٨٧)

في مظاهر النظافة والأناقة وطرائق التأدب والتهديب التي انتقلت من الطبقة العليا إلى الشعب . ويجب أن ندخل في اعتبارنا كذلك أن شرفاء الناس والأسوياء منهم تستهويهم الفضيلة بفطرتهم وتستحوذ على إعجابهم مهما كانت الطبقة التي ينتمون إليها .

ويلاحظ «توكفيل» عن حق : « أن الطبقة التي تمكنت من السير في المقدمة خلال عدة قرون تكتسب من هذه الممارسة الطويلة لمظاهر الزعامة — الاعتزاز بالنفس وثقة طبيعية في قوتها كما تعتاد أن تكون مثالا يحتذى وبذلك تصبح أقوى دعامة للكيان الاجتماعي . وهي لا تعبر عن أخلاق الرجولة فحسب بل تسهم بما تبديه من أمثلة في تقوية مراس الطبقات الأخرى .

وقد كانت هذه في الواقع الوظيفة الاجتماعية لطبقة النبلاء إبان مجدها . إذ أن ما كان لها من شعور بالشرف واحترام للذات وللأصل حتم عليها التضحية والحرص على ألا تتدهور فتفقد ما اكتسبه الأجداد من مجد . وقد انتقلت هذه الصفات جميعها إلى طبقات المجتمع شيئاً فشيئاً . وأخذت ترتفع بها على درج حتى أصبحت تنظر إلى واجباتها نظرة تقديس وإجلال . وكان الاستقلال الذي يتمتع به أمير الإقطاع وشعوره بكرامته مثلاً أعلى يتوق الفلاحون والسوقة أن يصلوا إليه . وأصبح نظام الإقطاع على هذا النحو نموذجاً في أعين سكان المدن الذين ما لبثوا أن نظموا أنفسهم في مجموعات إقليمية للدلالة بحقوقهم

وامتيازاتهم أسوة بأمراء الريف ، كما حرصوا على تنفيذ العقود والوعود واضعين نصب أعينهم إرضاء شرفهم بالقيام بتعهداتهم فألفوا بذلك وحدات مدنية مستقلة لكل وحدة زعيمها وجيشها وشاراتها ونظامها التشريعي الخ... ورغبة منهم في مجارة أمراء الريف إلى أبعد حد أخذوا يعتنقون مبادئهم وفضائلهم ويبدون مثل شجاعتهم ، ويحاكون نظامهم الاجتماعي ويستمسكون بما لهم من روح الإخلاص ومن مقدرة على التضحية في سبيل الصالح العام .

وفي العصر الحديث تقدم لنا اليابان مثالا آخر لتأثير الطبقة العليا في مجموع أفراد الشعب . فالطبقة الحربية التي كانت تتكون من أمراء الإقطاع ، الداميو Daimios<sup>(١)</sup> ، وفرسان الجيش ، الساموراي Samorais ، ومن النبلاء وأتباعهم قد أسهمت بما كان لها من سطوة ونفوذ في خلق روح التضحية واحتقار الموت والبطولة والتعصب للوطن ، وهي الروح التي امتاز بها الشعب الياباني في مجموعه وتجلت بأجلى مظهر في صفوف الجنود اليابانيين .

وقد خلفت كل طبقة وصلت إلى مركز الصدارة والسلطة

---

(١) الداميو اسم يطلق على أمراء الإقطاع في اليابان وهم الذين قعدوا امتيازاتهم في ثورة ١٨٦٨ .  
(الترجم)

(١٨٩)

في المجتمع ورامها تراثاً استفادت منه الأجيال اللاحقة . فخلقت النبالة الفرنسية مثلاً تقاليد جديدة كالتمسك بالشرف والأخذ بناصر الضعيف ، والرقرة في معاملة السيدات واحترام المرأة وصيانة العهد . وأذاعت طبقة رجال الكنيسة روح التقوى والإحسان ومساعدة الفقراء والشعور بالقيمة السامية للحياة الروحية والحرص على نقاء الضمير . أما طبقة البورجوازية الفرنسية الأصلية فقد تركت هي الأخرى لأحفادها تراثاً ثميناً قوامه الفضائل المتينة السمجة التي لم تتزحزح عنها قيد أنملة ؛ وأهمها استقامة السلوك والنزاهة الصارمة والإخلاص في العمل وروح التدبير والاقتصاد ، وتفضيل الواجب على المتعة ، والإيمان بأن الشرف أقوم من المال . وعلى هذا النحو غدت فضائل الأرستقراطية نموذجاً للبورجوازية ، كما أصبحت فضائل البورجوازية نموذجاً للشعب ، وتغلغلت فضائل رجال الكنيسة في جميع الطبقات عن طريق القدوة والتعليم . وإذا نحن قارنا روسيا القيصرية بمجتمعات أوروبا الأخرى في هذه الناحية وجدنا أن روسيا لم تكن بها طبقة أرستقراطية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وكان رجال الكنيسة فيها على درجة ظاهرة من النقص والعيب ؛ لذا لم يرتفع المستوى الأخلاقي للأمة — كما لاحظ ذلك مكسيم جوركي نفسه — إلى الدرجة التي وصل إليها في سائر بلدان أوروبا .

## خاتمة

تقوم الطبقات في كل مجتمع سواء اعترفت بها الدولة أو لم تعترف وسواء أخضعتها أو لم تخضعها لتنظيم القانون. وهي تنشأ عن تغيير تلقائي في مستويات المعيشة وأنواع الحياة في المجتمع بسبب اختلاف الأعمال والمهن والتفاوت في الثروة أو الثقافة أو المواهب أو الفضائل. فإن اشترك عدة أفراد في مستوى المعيشة أو نوع الحياة كان عاملاً على تقارب بعضهم من بعض وعلى إيجاد أنواع من الصلات والتعاطف فيما بينهم، وقد يكون ذلك بدافع الضرورة أو بدافع الحكمة وتشابه الأذواق.

إن التسكين التلقائي للطبقات بل أن وجودها في جميع الشعوب، البدائي منها والمتحضر، يدل على أنه يستجيب لضرورات اجتماعية ثابتة ولحاجات دائمة. بيد أن الظروف التاريخية والأحوال الاجتماعية في بلد ما أو في عصر معين قد تؤدي إلى خلق طبقة جديدة أو تعمل على تطوير أو تدهور أو اختفاء كل طبقة على حدة.

وهذا يعني أن كل طبقة تقوم بوظيفة في المجتمع. وهذه الوظيفة هي مجموع الأعمال والواجبات التي تؤديها أو ما سماه «أرسطو» نشاطها الخاص، سواء أكان ذلك زراعة الأرض

أو صناعة الأدوات والأسلحة أو إعداد الحرب وقيادتها أو التفكير أو التعليم أو الحكم الاتجار في الحاصلات ونقاها إلى مكان الحاجة إليها أو على العمل على احترام قواعد القانون إلى غير ذلك من وجوه النشاط .

ويختلف تقدير الناس لهذه الأعمال المختلفة تبعاً لما لها من فائدة ولما تؤديه من خدمات وليس أدل على هذه الحقيقة عما شاع في المجتمعات القديمة من تقدير أو تحقير للعمل وفقاً للظروف التي عاش فيها كل مجتمع . إذ جاء على لسان « هزiodة Hésiode » أن غضب الآلهة لا يقل عن غضب الناس من كل من يعيش بدون عمل . وليس هناك ما يعيب في أي عمل ولكن العيب هو ألا يعمل المرء شيئاً . وكانت هذه عقيدة الأثينيين فقد كانوا سكان بلد يدين برخائه لممارسة التجارة ولذا فقد أمر « دراكون dracon » ثم « صولون Solon » من بعده بتوقيع عقوبات على الكسالى العاطلين . أما في اسبارطة فقد كان الأمر على عكس ذلك . إذ لما كان سكان المدينة محوطين من كل جانب بأعداء أكثر منهم عدداً فقد اضطروا للتفرغ لأعمال الحرب كما أن الحكومة من جانبها جعلت سياستها أن يعيش المواطنون في حالة تقشف حتى لا يضعف الثراء من شجاعتهم أو يفسد أخلاقهم ولذا فقد حرم على المواطنين القيام بالأعمال التي تدر عليهم المال تحريماً تاماً ومن ثم ندرك مغزى مقاله أحد الأسبرطيين

حين سمع بتوقيع العقوبة على أحد سكان المناطق المجاورة لتعطله عن العمل «دلوئي أين يوجد هذا الرجل الذى عوقب لأنه كان يعيش حراً». وحدثت حذو اسبارطة مدن «تيسبيس Thespias» و«طيبة Thèbes» و«ايدور Epidaure»، إذا كانت تعد ممارسة أى مهنة فقدانا لحقوق المواطنة. وقد يبرر هذه النظرة نوع الحضارة التى عاشت فيها هذه المجتمعات إذ كانت تضم بين ثناياها من العبيد والأجانب أكثر مما كانت تضم من المواطنين الأحرار ولذا تعين على كل مواطن أن يخضع لالتزامات مدنية وسياسية عدة ما كان يستطيع الوفاء بها أو أداءها على الوجه الأتمل إذا هو شغل نفسه بمهنة. وهذا بالذات هو مادفع أرسطو إلى القول بأن «الانسان الذى يحتاج أن يعمل لكي يعيش لا يستطيع أن يكون مواطناً». فالصالح الاجتماعى اذن هو الذى مال بالعقول إلى احتقار المهن اليدوية التى اشتهرت بأنها تفقد المرء حريته نظراً لقيام العبيد بها.

نرى من هذا أن الطبقات التى تستجيب أعمالها العادية لحاجات اجتماعية جوهرية يكون لها مركز الصدارة فى الأحداث وفى الأذهان وفقاً لحالة الحضارة فى عصر معين. ففى حضارة عليية وصناعية كحضارتنا الحالية مثلاً يعد صيت النبلاء أثراً من آثار الماضى كما أن نفوذ رجال الكنيسة قد ضعف بكثير عما كان عليه فى النظام الملكى القديم. ولكن كبار رجال الصناعة

(١٩٣)

أخذوا يحتلون مكان الصدارة في المجتمع وأصبح للعلماء والأطباء والمهندسين ولطبقة العمال بصفة عامة من الأهمية ما لم يكن لها في أى زمن من الأزمان وعلى العكس من ذلك أى حينها كان العلم والصناعة والمعاملات المالية أموراً لا أهمية لها في العصور الوسطى كانت الكنيسة والنبالة العسكرية تتمتعان بسلطة عريضة ونفوذ واسع . إذ كانت الأولى تقوم على خدمة الدين والعقيدة التي كانت متعلقة إلى أبعد حد في النفوس ، وكانت الثانية تقوم بحاجة الحماية والدفاع عن النفس في وقت كانت الحاجة فيه إلى الحماية كبيرة .

نخرج من هذا كله بنتيجة أساسية وهي أن الطبقات تختلف وتتنوع تبعاً لطبيعة الخدمات التي تؤديها وأنها تدرج في الأهمية بحسب قيمة هذه الخدمات .

ومع ذلك فإذا نظرنا إلى الأمور نظرة فاحصة وجدنا أن تدرج الطبقات لا يتوقف على عامل المنفعة وحده ، أى على أهمية الأعمال التي تؤديها كل طبقة من الطبقات المجتمع في مجموعته بل إنه لا يعتمد كل الاعتماد على التقدير الذي يكتنه الناس لقيمة هذه الأعمال . فما من شعب يستطيع أن يستغنى عن القمح أو الأرز أو اللبن أو الجلد أو الصوف أو أى نوع آخر من أنواع السلع الاستهلاكية . ولم يكن « أتिला » نفسه — أتिला الحقيقي الذي

لا ينطبق تماماً على ما تصوره الأسطورة — لم يكن يخرب جميع البلاد التي تغزوها بل كان يقتصر على تدمير المدن، ويبقى على القرى حتى يستطيع أن يجد ما يغذى به رجاله وخيله. ولكن على الرغم من هذه الأهمية الرئيسية لطبقة الفلاحين فإنها لم تكن في يوم من الأيام الطبقة المهمة على مقاليد الأمور ولم يحدث هذا حتى في الصين نفسها وهي البلاد التي كان للفلاح فيها من الأهمية ما جعل الإمبراطور يشعر بالحاجة إلى أن يعلن على الملأ أنه الفلاح الأول في البلاد.

وعلى ذلك فليست المصلحة وحدها هي المقياس الوحيد لقيمة الطبقة حتى ولو كانت موضع تقدير المجتمع بأكمله. بل يجب النظر بعين الاعتبار إلى الوظيفة ذاتها وأهميتها في البناء الاجتماعي. وليس من شك في أن أي بلد يستطيع أن يعيش وهو في غنى عن العلماء والفنانين والمشرعين لكنه لا يستطيع أن يستغنى عن حارثي الأرض أو الحدادين. ومع ذلك فلم تكن طبقات العمال والفلاحين في أي يوم من الأيام أبرز طبقات المجتمع. وحتى في روسيا السوفيتية نفسها وهي التي ادعت أنها أعطت المكانة الأولى لتلك الطبقات ورمزت لهذه المكانة بالمنجل والمطرقة وضعتهما شعاراً على العلم الوطني للدولة، لا تزال نلاحظ تدرجاً اجتماعياً كما كانت الحال في عهد القيصرية إذ، يحتل أعضاء المكتب السياسي

(١٩٥)

للحزب الشيوعي وقواد الجيش والعلماء الرسميين ورجال الإدارة  
المكانة الأولى دون منازع .

هذه الظاهرة التي فرضتها طبيعة الأشياء هي التي نتناولها  
الآن بالتحليل لنوضح حقيقتها :

فمن يلاحظ العالم الذي نعيش فيه يتضح له أنه يقوم على  
تدرج بين الكائنات . وأن أكثر الكائنات ضرورة للحياة  
أحطها مرتبة . فعالم المادة أو مملكة المعادن التي تعد أدنى مراتب  
الكون هي العباد الضروري لكل من المملكتين النباتية والحيوانية  
ولا تستطيع أفراد المملكة الحيوانية نفسها أن تستغنى عن  
المملكة النباتية إذ أنها تعتمد عليها في غذائها سواء تغذت  
بالنباتات أصلاً أو الحيوانات التي تعيش على العشب أو الحبوب  
والواقع أن وجود الوظائف الدنيا شرط أساسي لوجود  
الوظائف العليا . هذا قانون عام من قوانين الطبيعة . فلكي  
يستطيع الإنسان أن يفكر وأن يحس وأن يريد يجب أولاً  
أن تستنشق رتاه الهواء وأن تهضم معدته الغذاء وأن يخفق قلبه  
بالنبض وأن يجري دمه في عروقه وشرايينه . وإذن فحياته  
الروحية وهي أسمى جانب من نشاطه مشروطة بحياته الحيوانية  
وهذه الحياة الحيوانية مشروطة نفسها بحياته العضوية

ولا يختلف الأمر عن ذلك في المجتمعات الإنسانية<sup>(١)</sup> .  
 فحراث الأرض فيها والعمال والتجار شرط لوجود الحكام  
 ورجال الدين والفلاسفة والعلماء . فهؤلاء في حاجة إلى المحراث  
 والعمال والتجار لتزويدهم بالغذاء والملبس والسكن والأثاث وكل  
 ما تتطلبه حياتهم المادية كما أنهم يعتمدون عليهم في تزويدهم  
 بالسلاح اللازم للدفاع عن أرضهم وكيانهم . ومع ذلك فإن من  
 يتقلدون زمام السلطة الزمنية أو الروحية هم الذين يحتلون  
 المراتب العليا في المجتمع على حين أن الفلاحين والعمال يكونون  
 أو كانوا دائماً يؤلفون الطبقات الدنيا .

والسبب في ذلك في الواقع أن إرادة الحياة عند الأفراد والجماعات  
 تنجذ دائماً وجهة معينة وتهدف إلى تحقيق أهداف عليا : فالأفراد  
 والجماعات لا يجهدون في الاحتفاظ بالبقاء فحسب بل يحاولون أن  
 يحققوا شكلاً معيناً من أشكال الحياة ويجتهدون للاحتفاظ به في أسنى  
 مظاهره . ومن ثم بدت وظائف القيادة والتوجيه السياسي والديني  
 والخلقي ، بدت أكثر أهمية من وظائف الإنتاج والتبادل بالرغم  
 من أن هذه الأخيرة أكثر منها ضرورة . وقد استطاعت الزراعة  
 والصناعة خلال قرون طويلة أن تستغني عن العلم التجريبي ؛  
 ولكن الحضارة التي وصلنا إليها والتي نتمسك بها اليوم تقوم على

(١) هذا الاتجاه في تشبيه المجتمع في تطوره بالسكان الحي اتجاه ساد في  
 القرن التاسع عشر على أثر تقدم علوم الحياة ومن أهم أنصاره العالم الإنجليزي  
 هربرت سبنسر . انظر بحثنا « نظرية التطور الاجتماعي » في منشورات الجمعية  
 المصرية لعلم الاجتماع . . ( المترجم )

السكك الحديدية وعلى وسائل الملاحة التي تسيير بالبخار أو البترول وعلى الطائرات والسيارات وخطوط الرق والتليفون وعلى الإنتاج الكيميائي وصهر المعادن وهذه الوسائل كلها يستحيل تحقيقها بدون العلم . كما أن هذه الحضارة تتضمن أيضا قوانين ونظاما اجتماعيا وعقائد فلسفية ودينية وقواعد أخلاقية لولاها لرجعت الإنسانية إلى حالة الوحشية والهمجية .

نخلص من هذا إلى أن كل مجتمع له مثل أعلى في الحياة يصدر بمقتضاه أحكامه ورتب وجوه نشاطه . وبالقياس إلى هذا المثل الأعلى يضع المجتمع بطريقة لا شعورية أو عن إدراك تام لطبيعة الأشياء — إحدى الطبقات في مكانة أسمى مما تحتله الطبقات الأخرى .

ويستمد هذا المثل الأعلى طبيعته وقوته من نزعة طبيعية تميل بالطبقات الدنيا إلى محاكاة الطبقات العليا ويجعلها تكف عن هذه المحاكاة بالرغم من ضروب الصراع والمنافسة القوية التي تنشأ فيما بينها . فلا زلنا نرى في أيامنا هذه أن طبقة العمال تطامح في أن تتخذ لنفسها مظهرا بوجوازيا بالرغم من العداوة الذي تبديه للبورجوازية .

ولا شك أن من الرغبات المشروعة للعمال أن يتمتعوا بمستوى معقول من الرفاهية ، وأن يكون لهم من الاعتبار ما

للطبقات الأخرى وأن يشعروا مثلها بنوع من الأمن بالنسبة  
لغدهم وأن يتمكنوا من الاحتفاظ بجزء من دخلهم يستعينون به  
على عادات الزمن؛ كما أن من حقهم أن يتخلصوا من الشعور  
بأنهم قافلة من القوم الرحل استقرت على رقعة من أرض الدولة  
التي ولدوا فيها حيث تتطلب دواعي العمل، وذلك بعد أن فعلت  
بهم السياسة الأفاعيل وصورتهم على أنهم جزء غريب عن جسم  
الدولة. فشعور العمال بالنقص والدونية وعدم الثقة والحدق والحسد،  
كل أولئك يرتبط بهذه الرغبة المشروعة في الارتقاء الاجتماعي.  
بل نستطيع أن نرى في طموحهم للاستحواذ على السلطة مظهراً  
من مظاهر تطوعهم للتشبه بتلك الطبقات الحاكمة التي  
يشورون ضدها.

إذا تعمقنا إذن جوهر الظواهر وجدنا أن هناك تدرجاً في الوظائف  
يتضمن — لممارستها المشروعة — عدداً من القدرات والفضائل  
المحددة. ووجود هذه القدرات والفضائل عند الطبقات الموجهة  
لدفة الأمور واعتراف الطبقات الأخرى بها هو الأساس الذي  
تقوم عليه السلطة والنفوذ. وما كانت جميع الطبقات الاجتماعية  
التي وصلت إلى مراكز الحكم بصفاتها الطبقية كطبقة رجال  
الكنيسة وكبار النبلاء وأثرياء البورجوازية — ما كانت هذه  
الطبقات لتصل إلى ما وصلت إليه من سلطة ونفوذ إلا على أساس  
الاقتناع الذي ملأ نفوس الشعب بأن الكهانة والنبالة

والبورجوازية الثرية ترتبط بفضائل خلقية معينة كالتقوى والإحسان والشجاعة والكرم والتحمس للعمل والمصالح الجماعية؛ كما أنها لا تنفصل عن قدرات اجتماعية مفيدة تقوم على معرفة الله ومعرفة الواجبات الإنسانية وإتقان فن قيادة الجيوش والنجاح في المشروعات إلى غير تلك من الأمور التي تبرر في نظر الشعب حق هذه الطبقات في إدارة الشؤون العامة والهيمنة على أمور الدولة.

ويترتب على ذلك حقيقة هامة وهي أنه إذا كانت المكانة التي تحتلها إحدى الطبقات في المجتمع ترتبط بالوظيفة التي تؤديها وبالذور الذي تقوم به فإن الاعتبار الذي تكسبه يتوقف أولاً وقبل كل شيء، على إتقانها لهذه الوظيفة وعلى قيامها بواجبها في إخلاص وكفاية. وأنها تعرض نفسها وتعرض المجتمع بأكمله للخطر إذا نسيت وظيفتها وواجباتها وانصرفت إلى التفكير فيما يعود عليها من مغائم عن طريق الوظيفة. ويزودنا التاريخ بأمثلة كثيرة لطبقات وفتات اجتماعية أغراها الطمع فوقعت في هذا الخطأ.

فبالرغم من المنافع الاجتماعية التي تؤديها عادة كل طبقة فإنها تميل أحياناً إلى أن تشيخ بوجهها عن التضامن الذي يربطها بالطبقات الأخرى وتنسى المصالح التي تؤديها هذه الطبقات

إلى رخاء البلد وعظمته . وهي في هذه الحالة، في الواقع، تندفع وراء رغبتها في الاحتفاظ بكيانها تحذوها رغبة في الحياة وقوة دافعة لا تتفق دائماً مع مايسود المجتمع ، في مجموعه ، من اتجاهات وميول . ومن الأمور المتفق عليها أن الأهواء والميول الأنانية تفوق في قوتها العواطف الغيرية والاتجاهات المنزهة عن الغرض . فالحكام والأبطال والقديسون في أى عصر من العصور قلة نادرة . فكل طبقة إذن أنانية بطبعها وتنزع بفطرتها إلى أن تمتنع عن الآخرين ما تتمتع به من مزايا خشية أن يقلل ذلك من قيمة ما تتمتع به . ولذلك فإن التوسع في منح حق المواطنة للأجانب في أثينا وفي روما قد اصطدم بمقاومة الطبقات الدنيا له مقاومة غنيفة . ولم يكن السبب الوحيد لهذه المقاومة في أثينا هو أن حق المواطنة كان يؤدي إلى حق امتلاك الأرض بما كان يعرض الاثينيين لانتزاع أراضيهم منهم وإعطائها إلى الأجانب الذين حصلوا على الجنسية ، بل كانت أيضاً بسبب توزيع حصيلة الضرائب التي تفرض على الأغنياء لصالح الفقراء إذ كان هؤلاء يحصلون على نصيب أكبر كلما قل عددهم . أما في روما فلم تحفل طبقة الشعب بأن تقسم القمح الذي كان يوزع مجاناً أو بأثمان منخفضة أو غنائم الحرب أو الأراضي التي تمنحها الدولة ، لم تحفل بأن تقسم ذلك مع الإيطاليين الذين تمنحهم السلطات حق المواطنة . وقد وقفت طبقة الشعب في فرنسا قبل الثورة موافقاً عدائياً بمائلاً

(٢٠١)

من النبلاء حين طلب هؤلاء أن يمنحوا حق ممارسة التجارة وكان هذا الشعور نفسه يسيطر على النقابات المهنية في دويلات الأراضى المنخفضة الديمقراطية التي وصفها هنرى بيرين Pirenne ، وصفاً دقيقاً . فكانت كل مهنة في ظل هذا التنظيم الديمقراطي تنطوي على نفسها بزعامه رئيس كما كان الحال في الأسرة الرومانية وكانت خدمات الطائفة لا تتعدى نطاق أعضائها مما يجعلها تتصرف في أنانية نحو كل من لا يمت إليها بصلة كما كانت كل نقابة تتمسك بامتيازاتها ولا ترضى بها بديلاً .

هذه الأنانية الطبقيه لا تلبث أن تغدو من أسباب تدهور الطبقات واضمحلالها : ذلك أن كل طبقة تتوقف عن التعاون مع الطبقات الأخرى تصبح في عزلة عن بقية المجتمع الذى لا يلبث أن يناصبها العداء وتجهد مدفوعة بأنانياتها فى أن توسع نطاق امتيازاتها أو تحتفظ بها دون انتقاص ، وذلك فى الوقت الذى تصبح فيه الخدمات التى تؤديها لا تعادل ما تتمتع به من امتيازات . وينتج بالضرورة عن هذه الأنانية أنواع التنافس والصراع الاجتماعى بين الطبقات .

ومما يعرض الطبقة التى تسيطر على الامور أو التى تشعر بأهميتها للخطر هو أن تستغل نفوذها استغلالاً سيئاً أو تنتهز فرصة حاجة الطبقات الأخرى إليها لى تبسط نطاق المزايا التى تتمتع بها . ومما يعرضها للخطر كذلك أن تهمل فى أداء

(٢٠٢)

وظائفها التي اقتصت بها أو تركها وتظل تدعى لنفسها الاحتفاظ بجميع الامتيازات التي خولتها لها خدماتها التي توقفت . وقد كان هذا سبب تدهور النبلاء في أواخر النظام الملكي القديم وسيكون سبب تدهور أى طبقة أخرى إذا وصلت إلى مركز ممتاز في أى ناحية من النواحي ، ثم وجهت همها لزيادة ما تتمتع به من الامتيازات دون أن يكون هناك ما يقابلها من الخدمات : فتدهور البورجوازية مثلاً إذا لم تحاول أن تفهم أن الثراء يحملها واجبات وتبعات . وتفقد طبقة العمال كل عطف إذا أخذت تطالب كل يوم بزيادة أجورها مهددة بالإضراب وأخذ إنتاجها يضعف يوماً عن يوم ولم تراع ضميرها فيما تعمل وأصبحت تعمل في كسل وإهمال .

ومن الأخطار التي تهدد الطبقات كذلك أن يحاول بعضها محاكاة بعض في غير تبصر أو تعقل . فقد رأينا أن الطبقات التي لاحظ لها من الصيت والنفوذ تحاول أن تتخذ من الطبقات العليا نموذجاً تحذو حذوه فتحاول أن تتمتع بما تتمتع به من وسائل الترف وأنواع اللهو أو تحاول أن تقتبس شيئاً من عاداتها أو تكتسب شيئاً من ثقافتها . وقد قلنا إن محاكاة الطبقات بعضها بعضاً ييسر تبادل الثقافة فيما بينها . فعن طريقها استطاع النبلاء والبورجوازيون أن يزودوا أنفسهم بالمعرفة والعلم اللذين ظلوا وقتاً طويلاً واقفاً على طبقة رجال الكنيسة ، كما أن قواعد التأدب والتهديب

(٢٠٣)

التي اتصف بها كبار الأساقفة والنبلاء هبطت شيئاً فشيئاً عن طريق المحاكاة إلى مستوى البورجوازية ، ثم إلى الشعب .

ولكن هذه المحاكاة المتبادلة بالرغم من مزاياها العديدة تحمل أيضاً في طياتها أخطاراً كبيرة . فالطبقة التي تحاكي أخرى قد تقتبس عاداتها السيئة وعباراتها المرذولة وعيوبها ومفاسدها ، كما تأخذ عنها حسن المظهر والوجاهة وأناقتها في التعبير وصفاتها الفاضلة . ومن قبيل ذلك ما لوحظ من اقتباس أفراد المجتمع الراقى لكثير من المصطلحات السائدة في الأوساط الشعبية والعمالية « L'argot » ، وما لوحظ من إدمان بعض أفراد البورجوازية للخمر كخالة الشعب ، وذلك باقتباس عادة تقديم « الكوكتيل » في كل مناسبة . ولسنا في حاجة لأن نذكر محاكاة السيدات الأعمى وولع رقيقات الحال منهن بمحاكاة سيدات الطبقات الغنية في ملبسهن وزينتهن وطريقتهن في تصفيف الشعر الخ ..

في مثل هذه الأحوال يمكن القول بأن ما يهدد إحدى الطبقات بالخطر حين تحاول الارتقاء وتحسين مركزها هو أن تحاكي الطبقة العليا التي تحاول الاندماج فيها أو احتلال مركزها في نقائصها ومفاسدها بدلا من أن تحاكيها في ميزاتها وفضائلها ؛ فتتخذ البورجوازية مثلا النبالة نموذجا لها في تقليد مجونها وادعائها وطموحها دون أن يكون لها اعتزازها بالشرف وسخاؤها الأصيل .

ولا تختلف عن ذلك حالة «محدث النعمة» الذي يبيع المال بمنة ويسرة دون أن يستطيع بذلك أن يتخذ مظهر «النيل ذي القلب الكبير» . كما أن طبقة العمال قد تتخذ البورجوازية نموذجاً لها وذلك بالسعى وراء المتعة والرفاهية دون أن تهتم باكتساب ما للبورجوازية من روح التدبير والاقتصاد وما اشتهرت به من الوعي المهني والاستقامة .

وأملنا الذي نرجو أن يتحقق لهو عكس هذا على التحديد : إذ نرجو أن يكون النموذج الذي تتخذه كل طبقة من محركاتها للأخرى قائماً على اقتباس الفضائل التي ترى أنها تنقصها أو التي لا تتمتع منها إلا بحظ ضئيل ، وأن تسود هذه القاعدة جميع الطبقات ، العليا منها والدنيا . وهذا الأمل لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان القائمون على رأس الدولة أنفسهم قدوة لغيرهم بحيث يرسمون لهم المثل الأعلى الذي يحتذونه، ويتألون من احترام الغير بما لهم من كفاءة واستقامة وما يحرسون عليه من حب للحقيقة والعدالة وإخلاص للصالح العام وإنكار للذات<sup>(١)</sup> .

(١) مما يدعو للبطء والفخر أن هذا الأمل قد تحقق في مصر بعد قيامها بثورتها التحريرية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . إذ أصبح زعمائها وقادتها قدوة لأفراد الشعب جيماً بإخلاصهم وحرصهم على الواجب ، وعلى تحقيق العدالة ، وتمائهم في خدمة الشعب ورفع مستوى الطبقات الفقيرة . ( المترجم )



"هذا الكتاب يعرض لطبقات المجتمع من شتى  
النواحي، كما إن له ميزة أخرى وهى عرض  
النظم من ناحيتها التاريخية عرضا مبسطا  
ووفيا فى الوقت نفسه، فأتاح بذلك للقارئ  
العادى فرصة التثقف واكتساب المعلومات العامة  
دون عناء أو إرهاق."

